دكتور نجيب الكيلاني

تحت راية الإسلام

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تحت راية الإسلام

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً : بيوشران

مقدمة

هذا الكتاب – كما يقولون – أشتات مجتمعات ، يضمه نسيج واحد من العقيدة المهيمنة ، والمنهج الواحد . وعلى الرغم من تناوله لكثير من الموضوعات الهامة في الفكر والأدب ، وفي التعليم والفنون المختلفة ، وإلمامه بعناصر حيوية في حياتنا . على الرغم من ذلك ، فإن المبادىء الإسلامية الخالدة ، تبعث بإشعاعاتها هنا وهناك ، لكي تنير لنا الطريق ، فتوضح المعالم ، وتنسق الخطى . على أسس من الموضوعية والصدق . . .

ولا شك أن شباب العالم الإسلامي اليوم في أمس الحاجة لمن يشير – ولو من بعيد – إلى الآفاق الرحبة التي يجب أن تحلق فيها عقولهم وآدابهم وفنونهم ، حتى يشاركوا بنصيب موفور في أداء الرسالة المنوطة بهم . . .

ولقد كانت هذه الموضوعات الحيوية كتابات في بعض الصحف العربية والإسلامية ، وأحاديث إذاعية ، تجمع بين الحوار الواعي الدقيق ، والدراسات الفكرية المختلفة ، كما

كانت إجابات لاستفسارات من الإخوة العاملين في حقل الثقافة الإسلامية . . .

هذا . وسيجد الإخوة القراء بضعة موضوعات على لسان ما أسميته « بشيخي » ، ولقد لاقت مثل هذه المحاورات قبولاً كبيراً لدى عدد كبير منهم ، وأتمنى أن يمكنني الله من مواصلة الكتابة فيها مستقبلاً . . .

وبعد . . . إن تلك الموضوعات قصدت من ورائها التنبيه لعناصر هامة في حياتنا العامة . وآمل أن تلاقي مزيداً من التمحص والدراسة في مختلف المجتمعات الإسلامية ، والله من وراء القصد . . . والسلام .

نجيب الكيلاني

٢١ — ٣ — ١٩٧٩

شيخي يحدثني عن :

الطوفان .. وَسَفينة نوح

كنت أسير في الطريق العام ذاهلاً عن كل الناس ، إن بقلبي مهرجاناً رائعاً للأفراح ، والسعادة تغمر روحي ، وتهز كياني هزّاً ، لم أعد أشعر بجوع أو ظمأ ، على الرغم من أنني لم أتناول طعامي وشرابي منذ ساعات ليست بالقليلة . وأثناء سيري في الزحام الشديد ، كنت أتوقف من آن لآخر ، ثم أمسك المجلة وأفتحها على صفحة بعينها . . . وأمعن النظر في اسمي المطبوع بأحرف سوداء كبيرة ، ثم أبدأ في قراءة المقال الذي كتبته للمرة العشرين . . . والرائحون والغادون يصطدمون بي ، يا إلهي ! ! أي سحر لتلك الكلمات المطبوعة! وأشعر بالنشوة العارمة حينما أتذكر أصدقائي الشباب وهم يقرأون كلماتي . . . إنها المرة الأولى التي ينشر لي شيء في المجلات . . . وذهبت إلى شيخي الجليل . . . كنت أمط في عنقي وقد ملأني الزهو ، وسيطرت على نفسي ثقة لا حد لها . . . وقدمت لشيخي ما كتبت ، قاسني بنظراته الفاحصة التي لا تخلو من حب وحنان ، ثم أخذ يقرأ في صمت . . .

كان قلبي يدق . وأنا جالس أنتظر النتيجة ، وعندما يصدر شيخي حكماً أتقبله في استسلام ورضى ، فما عرفت عنه في يوم من الأيام ميلاً مع الهوى ، أو انحرافاً عن القصد . . . وطال الصمت المشوب بالقلق ، وبعد فترة رفع رأسه وقال :

— « في البدء كان الكلمة » . . .

قلت في لهفة :

— « هل أعجبتك كلماتي ؟ ؟ »

همس في صوت رقيق مؤثر :

— « أي بني . . . الكلمة ليست مجرد حروف تخطها على الورق . . . إنها كائن حي . . . من لحم ودم وروح . . . ما أكثر الكلمات التي تولد ميتة ! ! تقرأها أو تسمعها فلا تستشعر فيها وهج الحياة ، وحرارة الشوق . وهناك كلمات تنطلق كالسهام ، أو تحرق كالنار ، أو تسيل كالبلسم الشافي ، أو تبعث في النفوس خامد الآمال ، أي بني . . . اسأل نفسك . . . من أي نوع أنت ؟ ؟ ولماذا كتبت ؟ ؟ ولمن توجه الكلمات ؟ ؟ وللكلمة دائماً روح تبعث فيها الحياة . . . وروح الكلمة الفعل . . . وبين القول والفعل مسيرة طويلة ، وجهاد مرير . . . فأين موقعك يا فتى في تلك المسيرة المحفوفة بالدموع والعرق والسهر ؟ »

وأنا قد عاهدت شيخي منذ البداية أن أكون صادقاً واضحاً ، لأني أعرفه جيداً ، فهو يرفض الزيف ، ويمقت التظاهر ، ولا يفتح بابه للمراوغين ، لأن الصدق هو الشرط الوحيد الذي يجعله أساساً للارتباط به ، وكثيراً ما كان يردد حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة كذاب ». عندئذ قلت في شجاعة :

— « سيدي الشيخ ... لا أكتمك الحقيقة ... لم يدر في ذهني وأنا أكتب مقالتي شيء مما تقول ... كل ما كنت أفكر فيه وأنا أكتب هو فصاحة الكلمة ، وبلاغة العبارة ، وجزالة الأسلوب ... وكنت أطمع في الشهرة ... كأن يقول الناس عني أنه كاتب بليغ ، أو أديب ضليع ، وكنت أحلم باليوم الذي أرى فيه اسمي منشوراً في الصحف ... أية صحف ... ولهذا أخذت أدبج المقالات ، وأؤلف القصص ، وأنسق القصائد ، وأبعث بما أكتب هنا وهناك ... دون نظر إلى اتجاهات الصحف الفكرية أو المذهبية ... تلك هي الحقيقة ... لقد حفظت الكثير من الشعر والنثر ، وكان لا بد أن أبدأ في يوم من الأيام ... وقد فعلت ... »

ابتسم شيخي ابتسامة ذات معنى وقال :

— « لا بأس يا بني ... فقد كنا ونحن صغار السن نقلد الخطباء والممثلين ، ونفعل مثلما يفعل المطربون والمطربات

في زماننا . ونخط على التراب حقولاً وقنوات نصب فيها الماء كما يفعل آباؤنا وهم يزرعون الأرض . . . وكنا نقلد الجيوش المتحاربة . والشرطة واللصوص . . . كنا نلهو ونلعب . . . أعني نمارس لوناً من الرياضة واللهو البريء . . . »

قلت وقد احمر وجهي خجلاً :

ـ « سامحك الله يا شيخي الجليل . . . أنا لم أعد طفلاً . . »

وضحك شيخي من قلبه حتى انفرجت شفتاه عن أسنانه الناصعة البياض ، ثم مسح على رأسي في حنان وقال :

ـ « الكلمة يا بني عميقة الجذور . . . إنها تمتد إلى بعيد . . . في دروب العقل والوجدان ، ولذا قالوا إن الكلمة إذا خرجت من القلب ذهبت إلى القلب . . . وفي عالمنا اليوم ملايين آلات الطباعة . وملايين مكبرات الصوت . . . الكلمات كالموج المتلاطم . . . غرقت عيوننا وأسماعنا في محيط هائل من الكلمات . . . وهكذا اختلط الحابل بالنابل ، الصادق بالكاذب . والطالح بالصالح ، وتأتي لتبحث عن « الكلمة الطيبة » فتكون كمن يبحث عن إبرة صغيرة في جبل هائل من الرمال . . . وقد تفني عمرك بحثاً عنها لعلك تجدها . . . وهيهات . . . لكن اعلم يا بني . . . إن للكلمة الصادقة جاذبية غريبة . . . لها مميزاتها وسماتها . . . تتألق

بين الملايين . . . وتشير إلى نفسها بنفسها . . . لكنك لن تعرفها إلاّ إذا كنت حريصاً عليها ، راغباً فيها . . . والأعجاز في الكلمة صدقها . . . ولهذا كانت معجزة محمد الكبرى القرآن .. كلام الله . . . أتذكر يا بني قصة الخضر عليه السلام وهو في رحلته المثيرة مع سيدنا موسى . . . لقد رأى طائراً يغط منقاره في ماء البحر الكبير . . . وعلقت بمنقاره قطرة ماء . . . أتدري ماذا قال الخضر ؟ ؟ : يا موسى ما علمي وعلمك بالنسبة لعلم الله إلاّ مثل تلك القطرة بالنسبة لذلك البحر الواسع الكبير . . . هكذا قيل . . . وانظر اليوم لمن يكتبون ... مؤلفاتهم غرور وكبرياء . . . يظنون أنهم أتوا بما ليس بعده علم ولا فكر . . . وأنهم قمم فيما يكتبون . . . ويا ويل من يتهمهم أو ينتقدهم . . . والحقيقة كاملة لم تعط لأحد في الوجود . . . إن علوم الدنيا بأسرها منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا لا تمثل إلاّ جزءً ضئيلاً من الحقيقة الكاملة الكبرى التي هي من حق السميع العليم البصير وحده سبحانه وتعالى . . . أي بني لسنا أنبياء . . . يوحى إليهم . . . ولكننا عبيد الله . . . فلتبحث لنفسك عن قاعدة تنطلق منها ، عن ينبوع تغرف منه المعرفة ، واحذر أن يكون ذلك الينبوع ملوثاً بهوى النفس ، وشبهة الطمع ، وصفة التجارة . . . نعم . . . التجارة . . . فلقد أصبحت الكلمات على أيامنا سلعاً استهلاكية واسعة الانتشار ، أصبحت تجارة رابحة ، يغنم منها الكتاب والناشرون ،

ويروج لها أصحاب النفوذ والمطامع ، وفي بلاد كثيرة من العالم أصبحت الصحف ودور النشر مملوكة لرجال المال وأصحاب المصانع والشركات وسماسرة السلاح ... أجل أصبحت الكلمات خاضعة لقوانين « التجنيد الإجباري » ، أصبحت أسيرة العرض والطلب ... وما أكثر الكتاب الذين يناضلون من أجل فكرة من الأفكار ، أو مذهب من المذاهب ، أو اتجاهاً من الاتجاهات السياسية ... وبين عشية وضحاها يتحولون إلى أبواق تحارب ما دعوا إليه من قبل ، وروجوا له ، لقد سقط برقع الحياء ، وانعدم الصدق ، وسيطر الطمع ، وفي هذا العالم المريض ، فقدت الكلمات دلالاتها ومعانيها ، أصبحت الكلمة ذات وجوه عدة ... قد تراها قرداً يرقص ، أو ليثاً يزمجر ، أو نسراً يحلق ، أو غراباً ينعب ... نفس الكلمة تغير أرديتها ومساحيقها ، وتبدل من مكياجها ... وتظل تسعى بين الأجيال بالزيف والغش والخديعة ... أتعتقد يا بني أن مثل تلك الكلمات تخرج من القلب ؟ ؟ لقد أصبح المفكرون كالصانع الماهر الذي تدرب على حرفته لسنين طويلة ، ومن ثم بات قادراً على أن يؤدي ببراعة تامة صنعته ... لا ... بل أصبح كالآلات الحديثة التي تخرج مئات الألوف من المصنوعات بسرعة فائقة ، وفي وقت قصير.. .هذا هو الطوفان يا بني.. .ولاشد ما أخاف أن يغرق فيه البشر .. فلتبحث لنفسك عن «سفينة نوح» ، وانج من هذا

الطوفان الهادر . وواجه نفسك بالحقيقة واقرأ القرآن لا لكي تتعلم منه البلاغة والفصاحة فحسب . بل لتغوص بحثاً عن كنه الحقيقة . . . عن الصدق في الأداء ، والروعة في العطاء . . .

أي بني الحبيب إن الكلمة مسئولية كبرى . . . ومن قديم كان الناس يموتون عن طواعية حين يخيرهم الطغاة بين النطق بكلمة الباطل أو الموت . . . سقراط يا ولدي شرب كأس الموت . دون أن يتزحزح عما اعتقد أنه حق . . . والموحدون استشهدوا وهم يهتفون بكلمة التوحيد . ومئات الألوف دفعوا أرواحهم في الأندلس والروسيا وفي الصين والفيليبين . وفي الهند وأفغانستان . لقد فتحوا أذرعهم للموت قديماً وحديثاً من أجل « لا إله إلاّ الله » . . . والشاعر أبو الطيب المتنبي عندما واجه قطاع الطريق وحاربهم ، أدرك أن الكثرة تغلب الشجاعة ، فولى الأدبار ، فأوقفه تابعه وقال له : أتفر وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفـــني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ولم يشأ أبو الطيب المتنبي أن يتنكر لكلمات قالها ، فغمغم لتابعه في أسى : « قتلتني قاتلك الله » ، ويذكر الرواة أنه عاد لقتال المعتدين . وظل يجاهدهم في بسالة وصدق حتى سقط من فوق جواده شهيداً . . . ورحم الله أمير الشعراء حينما قال :

إن الشجاعة في القلوب كثيرة
ووجدت شجعان العقول قليلا

فابحث لنفسك يا بني عن كلمة الصدق ، وسط طوفان الهذيان والشعارات الزائفة ، والأفكار الفارغة ، ابحث عنها وتشبث بها ، وكن ملتزماً بما تؤمن به عن يقين ، ولا تتزحزح عنه قيد أنملة ، ولا تتردد قط في أن تدفع حياتك وكل ما تملك لترجمة القول الصادق ، إلى فعل إيجابي واعلم أن أهل السماء والأرض لو اجتمعوا على أن يضروك ، فلن يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك ، فلن ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك ، جفت الأقلام ، وطويت الصحف . . . ولا يوجد بعد زيادة لمستزيد . . . إن كلماتك التي كتبتها في المجلة اليوم يا بني . . . لها رنين أخاذ ، لكنها خاوية المعنى ، وينبعث منها بريق أخاذ ، لكنها سرعان ما ينطفىء بريقها ، فتجد الطريق أمامك مظلماً ، لا تتضح فيه معالم ، ولا يقودك إلاّ إلى التيه والضياع . . . ولو كانت الكلمات الجوفاء قادرة على اكتساب معركة ، وحسم قضية ، لهان الأمر ، ولأصبح طريق الجهاد ملجأ لكل من هب ودب ، لكن وا أسفاه ! ! إن أبناء الأمة قد اكتفوا بالقول دون الفعل ، ولم يكن في الإمكان أن تصد الكلمات جحافل المعتدين ، أو تفلّ سلاح المهاجمين ، أو تبطل مفعول أسلحة الدمار والحقد التي واجهونا بها ، وهل يفل الحديد إلاّ الحديد ؟ ؟

وتعلم يا بني من التاريخ القديم والحديث، فالكلمات الصادقة دمرت عروشاً ظالمة . وأبادت ممالك باغية . وغيرت وجه التاريخ . . . وظلت تلك الكلمات مضيئة حية برغم مرور القرون الطويلة ، والأحقاب المتباعدة . . . ولتعلم يا بني أن الأوثان التي حطمها الأنبياء والمؤمنون ، ما فتئت تظهر من جيل إلى جيل تحت أسماء جديدة . وفي أزياء وأشكال متغيرة . تتلون كالحرباء . وتتخفى كالشياطين ، فالعالم لم يزل مليئاً بالأبالسة ، غاصاً بتلامذة الشيطان ، يظهرون في كل عصر تحت ستار الفلسفات والمذاهب العديدة ، وعلى هيئة الفنون والآداب الأخاذة . تلك التي تستهوي القلوب الضعيفة . وتستثير الغرائز الدنيا ، وتمكن لحياة الإباحية والفجور واللذة الآثمة . . . وانحراف النساء يا بني جاء في إطار كلمات صبها رجل في آذاننا عن الحرية . . . والمساواة بين الرجال والنساء ... وحقوق النساء ، وإن الانفلات من القيم والمبادىء العريقة ، كان بإيعاز مفكرين نادوا بالتخلص من الجمود والرجعية تحت شعار التمدن والتحضر ، حتى لكأن الفساد والإباحية وتجارة الرقيق الأبيض هي السعادة والنعيم . . . »

أذهلتني كلمات شيخي ، لقد وجدت الأمر كبيراً ، وكنت أظنه مهمة سهلة . نظرت إلى مقالي في المجلة ، شعرت بالتضاؤل والخجل ، كان غيري يكتبون الكلمات بمداد من الدم . أو بحبات العرق ، أو وهج الأرواح وأحداق

العيون ، وأنا أكتب بقلم جاف ، يتماوج على الورق في ميوعة واستهتار . . . استغفر الله . . . وطأطأت رأسي خاشعاً . . . وقلت :

– « أجل يا شيخي الجليل . . . يا داعية الحب والصدق والعطاء . . . يجب أن أبحث لنفسي عبر الطوفان الهادر عن سفينة تنجيني من الغرق والضياع . . . سفينة كسفينة نوح ... »

ووضع شيخي يده على رف خشبي بجواره ، ثم أحضر لي مجلداً ، وقال :

– « خذ هذا ... واقرأ ... ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . . . »

شيخي يحدثني عن :

حلبة الرقص

أحياناً يخيل إليّ أن مسرح الحياة قد تحول إلى حلبة كبيرة للرقص ، لعله نوع من الخيال الغريب . لكنها أحلام اليقظة ، تلك التي تنطلق على سجيتها ، فيذهب الإنسان العاجز المقهور بأحلامه إلى بعيد ، ويجوب في كل الأنحاء . ويرسم لنفسه عالماً أشبه ما يكون بعالم المجانين ، والرقص الذي أقصده هنا ليس هو ذلك الفن الرخيص الذي يبرز مفاتن الجسد ، ويثير الغرائز الدنيا في الإنسان ، إن الرقص الذي أقصده تجسيد لمعنى . . . إنه النفاق . . . رذيلة الرذائل . . . فالناس ينجذبون إلى مصادر القوة والعطاء في أغلب الأحيان . . . ويهرعون إلى المطامع . . . وقلت لنفسي : « وأنت ، ألا تفعل كما يفعل الآخرون ؟ ؟ » إنه سؤال عويص . . . يقولون إن الإنسان قد يخدع غيره ، لكنه من الصعب عليه أن يخدع نفسه . . . هل هذا صحيح ؟ ؟ وفي لحظة من لحظات الشجاعة ، هرولت إلى شيخي قائلاً :

— « أيها الشيخ الجليل . . . جئت أعترف لك . . . »

وشيخي كما تعلمون رجل متواضع صريح . ابتسم لي وقال :

— « ومن أنا حتى تعترف لي ؟ ؟ أنا عبد من عبيد الله مثلك . وليس بينك وبين ربك حجاب ... أطرق بابه . . . وسوف يفتح لك . . . وقل له كل شيء . . . »

أخذت أهز رأسي شارداً وأتمتم : « أعرف ذلك يا سيدي الشيخ . . . لكني لا أستطيع الصعود . . . ان رجلي ثقيلتان . وخجلي يشدني إلى الأرض ، وكيف أدق بابه وهي ملوثة بالآثام ؟ ؟ ستقول لي : ان بـــابه مفتوح لكل العـــائدين والتائبين . . . نعم . . . لكني أريد أن أرمي بآلامي أمامك . . . أريد أن تسمعني وترشدني . . . أنت الطبيب . . . وأنا الذي هدّت جسده وروحه الأسقام . . .

لقد كنت أحسب نفسي رجلاً شجاعاً ، طاهر الذيل . أقول الحق . لا أرائي ولا أداجن . . . لكني للاسف الشديد اكتشفت في لحظة صفاء تصرفات تصدر عني . . . انها غريبة غاية الغرابة . . . فمثلاً أسمع أحدهم يقع في الخطأ ، وأهم بأن ألفت نظره أو أزجره . لكني أراه أقوى وأعتى مني . ويستطيع أن يوقع بي أبشع الضرر . فأخدع نفسي وأقول : « كن لبقاً . . . » عندئذ وباسم اللباقة ابتسم في وجهه .

وأضحك ضحكة بلهاء ، أو أهرب بتعليق مرح ، أو أقول كلاماً لا معنى له ... أقول أي شيء . وأفعل أي شيء الا الحقيقة الصريحة ... وتبين لي أن اللباقة هي نفاق مقنع في كثير من الأحيان ... وهناك رجال أكره انحرافهم ومظالمهم . لكني في المناسبات السعيدة أذهب . وأشد على يدهم مهنئاً . والتهنئة المجزدة ، تجر الى الثناء عليهم . ووصفهم بما ليس فيهم من فضائل ... وأسمي ذلك « مجاملة » ... وبعد تمعن اكتشف أن تلك المجاملة ... ما هي الا ضرب من النفاق المقنع ... وكثيراً ما أغمض الطرف عن حدث سخيف أو تصرف آثم ، وأقول لنفسي : « وما شأنك أنت بالناس ... لكل حريته » ، وأحسبني بذلك رجلاً متمديناً متحضراً . بريئاً من الجمود والتعصب والانغلاق . ثم أعود وأفكر . وأجدني كالشيطان الأخرس ... أصطنع مصطلحات ومسميات أتوارى خلفها ، حتى أنفي عن نفسي تهمة الرياء والنفاق ... بالاختصار يا سيدي الشيخ الجليل ... وجدت نفسي أرقص مع الراقصين ... أرقص على كل لحن . وأتحول من الرقص الشرقي الى الرقص الغربي ... ويشتد بي الغباء والخداع ، فأسمي ذلك الرقص « باليه » ... ونظرت من حولي فوجدت الكثيرين يرقصون ويغنون ويدقون الطبول ... الدول الصغرى ترقص على المعزوفة التي يضربها الأقوياء . والعاملون في دواوين الشركات والمؤسسات في أنحاء العالم يتمايلون طرباً لرئيس مجلس الادارة . والكتا

والمفكرون يترنحون في أروقة المذاهب والعصبيات والعنصريات. والمحتاجون يفعلون نفس الشيء على موائد القادرين ... لهذا قلت لك يا شيخي الجليل أنني فتحت عيني جيداً ، فوجدت معظم الخلائق يرقصون ... ووجدتني أنا الآخر أرقص دون أن أدري ... انها مأساة وأي مأساة ! ! ولا أعرف يا مولاي كيف أخرج من حلبة الرقص تلك ؟ ؟ لقد دخلتها دون أن أدري . وظللت أرقص وأرقص حتّى سقطت مغشياً عليّ ... »

اكفهر وجه شيخي ، وقلما يفعل ذلك ، وزم شفتيه في غير قليل من الضيق والتبرم ، ممـــا جعلني أفكر في الانصراف ، لكنه سرعان ما أغمض عينيه ، وأخذ يحرك شفتيه بكلمات مبهمة ، ثم فتح عينيه وقال :

— « أي بني ... ليست الحياة على هذه الصورة من الفساد والإظلام ... »

وأشار بيده إلى السماء قائلاً :

— « انظر إلى تلك الآفاق الرحبة ... ها هي السماء زرقاء جميلة ... وكانت بالأمس ملبدة بالغيوم ... لكن من قال إن الغيوم قبح وكآبة ... ألا تفيض علينا بالمطر ... بالحياة والنماء ... ونظام الحياة المنسق البديع يتحرك بين

قطبي السلب والإيجاب . . . وبين القطبين كما تعلمتم في المدارس حركات جذب وطرد . . . ومجالات كهربائية ومغنطيسية . . . قد يكون الناس كما تتصور يرقصون . . . ورحم الله الشاعر الفيلسوف محمد إقبال حينما قال :

دع لأهل الغرب رقصاً بالجسوم
إن رقص الروح من ضرب الكليم

وضرب الكليم يا بني يقصد بها الشاعر ضربة موسى الحجر بعصاه ، لأن كليم الله عندما فعل ذلك انفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً ، فسقى القوم . . . وحينما ضرب البحر بعصاه صار كل فرق كالطود العظيم . . . وشق لنفسه ولمن معه طريقاً . . . لكن الطريق الذي كان نجاة لموسى وقومه ، هو نفس الطريق الذي صار مقبرة لفرعون وجنوده . . لقد جاد الصخر يا بني الصديق بالماء . . . عندما هوت عليه عصا موسى عليه السلام . . . وليست عصاه قطعة من خشب ، أو غصناً من شجرة . . . إنها عزيمة وقوة وثقة يحركها الإيمان الأعظم . . . وعندما ينطلق الإيمان الأعظم يا بني فلا تحدثني عن قوانين البشر ، ولا تخبرني عن المتعارف عليه أو البديهي من الأمور ...إنك عندئذ تقارن بين ما يمكن قياسه وما لا يمكن الإحاطة به . . . والناس فيهم من يرقص طمعاً أو فزعاً ، وفيهم من يرقص شوقاً وحباً ، وفيهم من يرقص أملاً في التحليق إلى آفاق أعظم وأروع من

أرض الأوثان . فالحركة طبيعة الوجود ، ومن النـــاس من
يتطوح يميناً ويساراً ثم يسقط لاهث الأنفاس منهوك القوى ،
ومنهم من يشتعل قلبه بحماسة معجزة . . . ألا وأن مصـــدر
الطاقة الأول هو الإيمان . . . قد يتبادر إلى ذهنك أن الإيمان
كلمة غامضة . . . وقد تقول العكس فتردد أنها أمر
سهل . . . إنها اليقين بوجود الله . . . قل ما تشاء . . .
لكن الذي أعنيه هو أن الإيمان نعمة . . . وهو تجربة وممارسة
وسلوك . . . فالإيمان لا يقف معناه عند حد الحروف
أو النطق بهـــا أو الاعتراف بها . . . الإيمان حيـــاة . .
وعندما تكون مؤمناً حقاً فلن يتطرق اليأس إلى قلبك أبداً،
فاليأس ليس من صفة المؤمنين . . . وعندما تكون مؤمناً . . .
لن تدير رأسك فكرة ماكرة تقرأها ، أو صفقة تجارية تخسرها ،
أو منصب عزيز يطردونك منه . أو امرأة جميلة هجرتك .
أو جهد بذلته بإخلاص ثم ضاع سدى . . . لأن الإيمان لا
يقاس بمقاييس الربح والخسارة ، الإيمان رضى مطلق .
وتشبث بحبل الله المتين . الإيمان هو مجتمعك وإن انفضّ الناس
عنك ، وهو سلواك وإن فقدت أغلى ما تملك، وهو دنياك
وأعود فأردد كلمات لإقبال فيلسوف الإسلام عظيم :

إذا الإيمان ضاع فلا أمان

ولا دنيا لمن لم يحي دينا . . .

أي بني . . . لو كنت مؤمناً حقاً ، لما سوَّد اليأس نظرتك ، ولما سقطت مغشياً عليك في حلبة الراقصين . . . »

كنت كالحالم وأنا أتابع كلمات شيخي الجليل . وسادت فترة صمت أفقت بعدها واقتربت منه وأكثر ، وأمسكت بيده الندية متشبثاً وأنا أقول :

– « سيدي . . . بالله عليك . . . لماذا نحب الدنيا ونكره الموت ؟ ؟ »

ابتسم شيخي . وبدا الإشراق الحلو على وجهه الأبيض المطمئن وقال :

– « سؤال جميل ردده قبلك الكثيرون من الناس . . . وأجاب عليه أحد الصالحين بقوله : لأنكم عمّرتم دنياكم ، وخرّبتم آخرتكم . وأنتم تكرهون الانتقال من العمار إلى الخراب . . . »

قلت وقد هزني الجواب :

– « يا إلهي . . . إننا نضرب في تيه لا نهاية له . . . نكدح ونشقى . . . ونجمع كل شيء في نهم ، يحصرنا الطمع في سجن كئيب برغم ما حولنا من ذهب ومتاع وآمال . ثم نترك ذلك كله ونمضي . . . كيف نفعل ذلك ؟ ؟ كيف ؟ »

وأخذت أدق رأسي بقبضتيّ كالمجنون :

وعاد الغضب إلى وجه شيخي . ثم أمسك بيدي ، وجذبني في رفق قائلاً :

— « ماذا تفعل ؟ ؟ »

قلت في حدة :

— « اقتص من حماقتي وجهلي . . . »

هز رأسه في تؤدة ، ثم قال :

— « عيبك العجلة وسرعة الانفعال . لكن لا عليك هكذا الشباب دائماً ، أنا لم تلدني أمي حكيماً كاملاً صالحاً . . . لقد وصلت إلى ما وصلت إليه بعد تجارب مريرة . . . كنت مثلك . . . أذكر في بداية حياتي الوظيفية إنني ارتبطت برئيسي في العمل ، وكنت على وشك أن أتزوج ابنته . . . أحسست أنني آمن مطمئن في عملي . . . والجميع كانوا ينظرون إلي في حسد . . . وبين عشية وضحاها ذهب رئيس العمل إلى وظيفة أخرى . . . ومن جاء بعده سامني أشد ألوان العذاب . . لكم عانيت وتألمت . . . وجاء رئيس ثالث . . . ورابع . . . وخامس . . . وكنت أنا أصعد وأهبط ، أو أعاقب أو أترقى . . . توترت سنوات عمري امتزج فيها الهناء بالشقاء . . . والحزن بالفرح . . . لكني دائماً كنت أشعر بالخوف . . . الخوف من الغد . . . ترى من سيذهب ومن سيأتي ؟ . . وفي لحظة من لحظات العمر الحاسمة كشف الله لي الحقيقة . . . نعم

إن سر ما أعانيه هو أنني كنت دائماً أرتبط بإنسان . . . أسند ظهري إلى كبير يحميني . . . وأدركت أن الإنسان فانٍ . . . أو منقول . . . أو مفصول في يوم من الأيام . . . وتلفت حولي باحثاً عن قوة أعظم وأثبت . . . إنه الله . . . وعرفت بعد وقت طويل أن الانتماء إلى الله عز ، والاعتماد عليه قوة ، والاستعانة به نصر ، والرضى بقضائه راحة ونعيم ، واللجوء إليه أمن واستقرار . . . وهكذا عرفت الطريق . . . وتحول رقصي الذي تحدثني عنه إلى . . . عبادة . . . كنت أعبده صامتاً . . . راكعاً . . . ساجداً . . . مسبحاً . . . قارئاً للقرآن . . . أعبده وأنا أؤدي واجبي بروح الصدق والأمانة ، وأعبده وأنا أتعامل مع زوجتي وأولادي وجيراني ، وزملائي في العمل ، ورؤسائي ... جعلت الله نصب عيني . . . وأخذت أبني وأعمر للدنيا ، كما أشيد وأعمل للآخرة ، وتحولت مخاوفي من الموت إلى سلام . . . فنحن هنا أو هناك بين يدي الله . . . وأخرجت من قاموسي كلمات الزيف والخداع . . . تلك التي تسميها مجاملة . . . لياقة . . . تحضر . . . وقصدت لتوي إلى المعنى الذي أريد ، واللفظ الذي يعبر عما أريد . . . فعلت ذلك دون غرور . . . والإناء يا ولدي ينضح بما فيه . . . فإذا ملأته عسلاً لن ينضح ماء . . . وعرفت أن الشر موجود ،

والخير قائم ، والكذب متجاور مع الصدق ، التناقضات قائمة كالليل والنهار . وفي ذلك حكمة يعلمها الله ، وقد رتب الله الكون على هذه الصورة . . .

تسألني عن العلاج . . . أنا لست طبيباً . . . لكني مرضت وشفيت . . . ولم أتجرع من الدواء سوى الإيمان . . . الدواء الأوحد لنفوسنا وعقولنا وأرواحنا . . . أما طب الأجساد . فهو متروك لغيري من أهل الاختصاص . . . لكن ثق يا بني أن شفاء الروح يعود على الجسد بالقوة والحيوية . . . وحينما تكون معافى الروح . . . ترى الوجود والكائنات على صورتها الأصيلة . ويفيض لسانك بالصدق ، ويجري قلمك بالحكمة . وترتبط أحكامك بالعدل . ويحبك الله والناس . وتمتلك العالم كله بين يديك . ولا يتحكم فيك العالم بأسره . . . وأعود مرة ثالثة لأردد شعر محمد إقبال الذي أحبه :

إنما الكافر حيران له الآفاق تيه

وأرى المؤمن كوناً تاهت الأكوان فيه

فالمؤمن الحق متفرد بخلقه وسلوكه ، يعرف الطريق ، ويمضي فيه دون تردد . وكيف ينتابه الهلع . أو يصعقه الخوف . أو يمزقه التردد . وقد رسم له ربه طريق الخلاص

من كل عذابات النفس في تلك الحياة الفانية القصيرة ، وأحلام المؤمنين غير أحلام المارقين ، وأمنيات الصالحين ، تختلف تمام الاختلاف عن مقاصد الطامعين ... عندئذ تستطيع أن تخرج من حلبة الرقص تلك ... وتصل إلى ساحة الرضى ... وكلمة الرضى عندي أعمق وأشمل وأدق من كلمة السعادة التي كثرت على ألسنة الناس في زماننا حتّى فقدت معناها ... وكان أبي رحمه الله وهو رجل ريفي بسيط يردد ذلك الدعاء دائماً : « يا رب الرضى ... »

بعد أن انتهى شيخي من كلامه . شعرت باطمئنان غريب ، وتمتمت :

— « لعنة الله على كل الراقصين ... »

ربت على كتفي كعادته في حنان وقال :

— « بل اطلب لهم من الله الهداية ... فاللعنة نار حارقة تبيد ... أما الهداية فهي حياة وإعادة لبناء الكيان الإنساني على نسق جديد جميل ... عافاك الله يا ولدي مما ابتلي به كثيراً من خلقه ،وحماك من الشرك الذي هو أخفى من دبيب النمل ، وسدد على طريق الحق خطاك ... ولا تبك على ما ضاع ، بل حاول أن تستدرك ما بقي ... »

وتذكرت مقطعاً من أغنية شعبية قديمة ، وأخذت أرددها :

لو كان بكايا على المحبوب يجيبهولي
لكنت أبكي وأجيب الناس يبكوا لي

وابتسم شيخي مرة أخرى .

شيخي يحدثني عن :

الموت .. والحربُ .. والسّلام

ذهبت إليه ... إنه هناك كما تعلمون في صومعته الخالدة ... كانت السماء تمطر مطراً خفيفاً ، والآفاق الشاسعة تزحمها الغيوم الداكنة ... كان الأنين ينبعث من قلبي مكتوماً ، وفمي مطبق صامت ، والدموع تهطل على خدّي حتّى لا أكاد أرى شيئاً أمامي ، الناس والأشياء أراها على هيئة أشباح غامضة المعالم ... والحزن الشديد شعور ثقيل مميت ... لم أعد أستسيغ معنى للحياة ... وعندما رأيت شيخي جالساً ، ارتميت على صدره منتحباً ... إن أساي المكتوم قد تفجر دفعة واحدة ... وظللت أبكي ... وهو يمسح على ظهري ورأسي صامتاً ... كان شيخي خاشعاً أمام قلبي الذي يذوب ألماً وعذاباً ... ثم انسحبت من بين ذراعيه وقلت :

— « لقد ذهب الأحباب ... »

همس شيخي وهو يهز رأسه :

— « دائماً يذهبون ... »

وأخذت أجفف دموعي وأردد :

ـ « بالأمس القريب مات أبي . . . مات وأنا بعيد . . . لم تمهلني الأقدار حتى أرد له بعض الجميل ، عاش طول حياته يشقى ويتعب من أجلي ، كان يجوع ليطعمني ، ويكدح ليوفر لي ما أحتاجه من نفقات ، أعطاني الكثير ، ولم يأخذ شيئاً . . . »

تمتم شيخي في إيمان ورضى :

ـ « الأرض تستقبل الغيث وتجود بالثمار والأزهار . . . وهكذا تزهر الدنيا ، ويبتسم الربيع الأخضر . . . ثم تجف العيدان . . . وتتحول الخضرة إلى شحوب . . . والأطفال يولدون ، ثم يتألق الأمل والحب والشباب . . . ثم ينحدرون إلى خريف العمر . . . فيدب الوهن ، وبعد ذلك تنطفىء شعلة الحياة . . . هل رأيت أحداً يا بني قد أفلت من هذا المصير ؟؟ الحياة في جوهرها فناء ، والموت يمهد الطريق لصورة أسمى وأروع من الحياة . . . الأحباب دائماً يذهبون.. لكن إلى أين ؟؟ إنهم ينتظرون هناك . . . ونحن معهم على موعد . . . ولا بد أن يأتي الموعد . . . المشكلة يا ولدي ليست في رحلة الموت . . . ولكن المشكلة في الزاد الذي يحمله المسافرون . . . وأبوك رحل إلى العالم الآخر . . . تحف بموكبه الذكريات الطاهرة ، والتضحيات العظيمة ، والصبر الجميل .

لقد نجح في أداء مهمته في الحياة ... لم يكن ينتظر منك متاعاً زائلاً . ولا مالاً وفيراً . كان يضحي من أجلك ومن أجل الآخرين ... ولو كان ينتظر الثمن لما كان ما قدمه يقع تحت شعار التضحية ... وإنما سميت تضحية لأنها لا تتصف بصفات المنفعة المتبادلة ... التضحية عطاء من جانب واحد ... عطاء مطلق وذلك هو المثل الأعلى ... »

كنت أستمع إلى شيخي . وصورة أبي ماثلة أمامي ... وجهه الطيب . كلماته البسيطة الصادقة ، جلوسه وسط الأبناء والأحفاد يداعبهم . ويطعمهم ويغدق عليهم من حبه وحدبه . تسليمه الكامل بكل ما تأتي به الأيام . رداؤه الفضفاض الرخيص الثمن . الحب الذي يطل من عينيه الصافيتين ... الأمل الذي يزرعه في قلوبنا نحن الصغار ... المثل الذي يضربه لنا عن رجال استطاعوا بالمثابرة والأمانة والاستقامة أن يصيروا عظماء ... مئات الحكايات عن الصالحين والصابرين والمخلصين ... كان يحنو على الحيوانات في بيتنا وحقولنا كما يحنو على الأطفال . ويكتشف أية أمراض تحل بها . فيمسح على جسدها ، ويقدم لها الطعام والشراب بنفسه . ويبحث لها عن الدواء ... حتى الحيوانات كانت تتمسح به عندما تراه . وتتشمم رداءه ، وكأنها تبش له وترحب به ... كان يحتضن الحياة والكائنات في قلبه الكبير ... على الرغم من أنه لم يكن يعرف من العلم إلاّ بضع آيات من القرآن .

وقليل من الأحكام الشرعية ، ومعلومات عن طبيعة الأرض والزرع والحيوانات والمطر والرياح ... تلقاها من كتاب الكون الكبير ، على مدار السنين والأعوام ... لكنه إذا تكلم جاءت كلماته سلسة تفيض بالحكمة السهلة الممتنعة ، وإذا صمت كان لصمته معنى أبلغ وأعمق من عشرات المقالات التي نكتبها اليوم ... لم يكن يعرف الفلسفة ولا المنطق ولا التحليلات السياسية ، ولا التفسيرات المتعسرة المتعسفة لمجريات الأحداث ... إذا حلت بالأمة هزيمة تغيرت سحنته وقال : « لقد خلت القلوب من الإيمان والتقوى ، وفقد الناس الإخاء والمحبة » ، وإذا نزلت بها كارثة اقتصادية ، أو شحت الأقوات في الأسواق ، واستشرت مفاسد السوق السوداء في أيام الحروب ... استعاذ بالله وحوقل وقال : « الناس صاروا وحوشاً » وكنت أنا أحدثه عن سوءات الاحتكار والاستغلال واستبداد التجار ، وأحدثه عن نظرية العرض والطلب ، وأعلل له الغلاء ، وأسرد له الكلام المكتوب في مؤلفات الاقتصاد والسياسة ، وفي الصحف السيارة . فيستمع إليّ جيداً ، ثم يبتسم ويقول : « كما قلت لك ... لقد انتزعت الرحمة من القلوب ... وهكذا صار الناس وحوشاً » وأعود أفكر في كلماته فأراها برغم بساطتها تبلور القضايا الخطيرة ، وتوجز الكلمات الطوال في عبارة واحدة تحمل كل الحقيقة ...

أي شيخي الجليل . . . عندما جاءني نبأ موته خيل إليّ أن أمراً عظيماً خطيراً قد حدث . . . لقد ماتت بموته معان كبيرة . . . الأرض تقفر من أزهار الصدق والبراءة والصفاء من جيل إلى جيل . . . والزيف يسيطر على مظاهر الكون . وأصبح الفساد والأثرة والطمع والنفعية . . . أصبح هذا فلسفة وسياسة وقانوناً تحت أسماء غريبة كثيرة . . . مثل حق الأفراد المقدس ، وحرية الرأي والعمل . وحق الإنسان في الحياة . . . »

وأدركت أنني قد أطلت الحديث . . . شعرت بالخجل من شيخي ، لقد جئت لأتعلم منه . لا لأعلمه . وهو يجلس صامتاً لا يقاطعني ، لعله أراد أن انطلق في حديثي حتّى أنسى بعض ما ألم بي من أحزان . . . ونظرت إليه . . . كان الحزن أيضاً يكسو ملامحه . . . وكففت عن الكلام . . .

وبعد لحظات سمعته يقول :

— « لست أدري لماذا يتعسنا ذكر الموت ؟ ؟ هل أخذنا على الله عهداً ألاّ نموت ؟ ؟ أي بني . . . في قريتنا الصغيرة كانوا يشيعون الموتى الصالحين بدقات الطبول والأغاني الدينية الشجية . . . وكان النسوة يطلقن الزغاريد . . . قد تبدو هذه الطقوس غريبة . . . وليس لها ضرورة في ديننا . . . لكنها تعني أموراً أخرى . . . إنهم يزفون هؤلاء الأتقياء إلى الجنة . . .

ولذلك هم يفرحون حسبما يتصورون . . . والناس يا بني فيهم الموتى الأحياء ، والأحياء الموتى . . . فالشهداء عند الله أحياء يرزقون بنص الآية الكريمة . . . والذين ساهموا في إثراء الحياة بالحب والخير والعدل لا ينساهم التاريخ . . . إنهم النجوم التي يهتدي بها الحيارى في ليل الحياة إذا ادلهمت . . . وهناك في عالمنا أفراد أحياء . . . لكنهم ماتوا منذ زمن على الرغم من أنهم يحركون سياسات العالم ، ويصدرون الأحكام فيما يتعلق بمصائر الشعوب . . . ويملون أهواءهم الشخصية على عبيد الله ، إننا نطيعهم ونحن نلعنهم ، وننفذ قراراتهم على الرغم منا ، الحناجر تشق عنان السماء هتافاً بأسمائهم . والمشهد كله يبدو كدراما محزنة . . . إنهم رسل الشيطان في الأرض . . . لا يذكرون الموت ولا يعرفونه . . . إن من يفهم سر الخلق وسر الموت . . . يعرف الله . . . هؤلاء الأشرار لا يتذوقون حقيقة الإيمان من خلال عظة الموت . . . وعندما يفاجئهم الموت تطير أنفسهم شعاعاً وخوفاً ورهبة. . . مثل هؤلاء ماتوا من قديم . . . ورحم الله شاعرنا إذ يقول :

الناس صنفان : موتى في حياتهمو
وآخرون ببطن الأرض أحياء . . .

قلت وأنا أهيم في عالم الفكر الذي ترسمه كلمات شيخي :

– « الموت لغز صعب الفهم . . . »

بدا الضيق على وجه شيخي وقال في حدة :

– « أي لغز فيه ؟ ؟ إننا نولد ونعمل ونموت . . . ثم نبعث . . . إنه لغز بالنسبة لمرضى النفوس الذين يبحثون عن حل . . . إنهم يرفضون الموت الذي لا مفر منه . . . يتغنون دائماً بالحقيقة . . . وهم في قرارة أنفسهم يتهربون من أقوى حقيقة في الوجود . . . أي بني عندما تستعد . وتتخذ للأمر أهبته فأنت تواجهه مؤمناً واثقاً . . . أما إذا سرت في الطريق دون أن تتسلح بالعمل والمعرفة والإيمان عندئذ فسترهب الغد... وتخاف من التصدي لمعارك الحياة . . . هنا اللغز . . . إننا نعدد طاقاتنا الفكرية والنفسية في محاولة الهروب من قدر الموت . . . والموت لا حيلة لنا فيه . . . قد يتأجل أو يتأخر . . . لكنه آتٍ لا محالة . . وصدق رسولنا (ص) حينما قال في حديث معناه : « عش ما شئت فإنك ميت . وأحبب من شئت فإنك مفارق . . . » وإنا لله وإنا إليه راجعون . . .

أي بني . . . كان صحابة الرسول يفهمون ذلك . . . أدركوا أن الحياة هي حصر لعدد من أعمال الخير . وليست حصراً لعدد من السنين والأيام . . . واجهوا الشر ولم يرهبوا الموت . . . كانت الحياة هي النصر والجهاد في سبيل الله . . . وكان الموت هو النكوص والفرار والطمع . . . وهكذا

تسابقوا للقاء الله . . . فإذا ما قسنا حياتهم بصالح الأعمال وجدناهم من المعمرين . . . وأتعس الناس يا بني من طال عمره وفسد عمله . . . لكن مطامع الحياة قد أضلت الخلق . وشغلتهم عن ادراك الحقيقة الكبرى ، والناس يا بني نيام . . . اذا ماتوا انتبهوا . . . أي بني الناس يموتون كل يوم . . . وهو درس نسمعه دائماً . . . لكن ما الحيلة في القلوب المغلقة ، والآذان الصماء ، والعقول الشاردة . . . وفلاسفة السلام يتحدثون عن السلام بطرق شتى . . . فمنهم من ينفر من الموت ، وينصب من نفسه داعية لحماية حق الحياة ، ومنهم من شبع من السلطة والنفوذ واستغلال الأمم الضعيفة . وملك كل شيء . . . فلماذا يحارب . . . الحرب هنا تهديد لسلطانه وأطماعه وملكه ، فالقضية الأصيلة يا بني ليست الحرب والسلام . . . وإنما القضية الأساسية هي الحق أو الباطل . . . فأينما يسود الباطل لا بد وأن نحاربه . ونضحي بالأرواح للقضاء عليه ، لأنه مخالف لنسق الطبيعة السليم ، ومجافٍ لروح العدل . . . وحيثما يكون الحق ، يجب أن نلتف حوله ، وندفع عن حصونه كل معتد أثيم . . . لأن الحق — كما قلت لك من قبل ذلك—اسم من أسماء الله. . .وهو البيئة الصالحة اسعادة الإنسان ، وعمران الأرض ، وراحة النفوس المؤمنة . . .
ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول في مدح الرسول :

الحرب في حق لديك شريعة

ومن السموم الناقعات دواء

وخليفة رسول الله يقول لقائد المجاهدين في إحدى المعارك الشريفة :

– « أحرص على الموت توهب لك الحياة » ، فالموت في مثل تلك الأحوال يا بني شرف وعقيدة وواجب . . . بل وحياة لا نهاية لها . . . أي بني . . . لكم تمنيت ألاّ يقيس جيلنا المؤمن الحياة بشروق الشمس وغروبها ، وأن يجعلوا لأنفسهم « تقويماً » جديداً لا يرتبط بالشمس والقمر ، بل يرتبط بما ينجزونه من عمل وجهاد . . . عندئذ يصبح الموت أمراً ثانوياً لا تحفه الألغاز ، ولا يوشحه الخوف والغموض والهم العظيم ، ولا تحيط به جوقة من الباكين والصائحين والنادبين . . . عندئذ لا يصبح شعار السلام ستاراً نخفي وراءه ضعف النفس ، وبلاء الاستسلام ، وعار الهزيمة ، والرضى بالدون من العيش ، وقبول الظلم ، وعندئذ لا ينظر الناس إلى الجهاد المقدس ، وكأنه دماء وعذاب وشقاء ، والجهاد يا بني هو الطريق الصحيح الذي يوصل إلى السلام والأمان والصفاء ، فلا سلام إذا أهدرت الحقوق ، واغتصبت الأرض ، وسيق الناس في ذل القيود والأغلال ، وتحولت الحياة إلى سجن كبير . . . القضية أولاً وأخيراً قضية حق وباطل . . . وليس من المقبول

شرعاً وعقلاً أن تقف أمام قضية الحق والباطل ، في أية بقعة من بقع الأرض ساكتاً . . . فالساكت عن الحق – كما يقول نبينا – شيطان أخرس . . . »

قلت في حزن :

– « الشرق والغرب إذن مليء بالشياطين . . . »

قال شيخي على الفور :

– « والعالم مليء بالخير أيضاً . . . لكن عيبنا أننا ننظر إلى الأمور من خلال اللحظة الراهنة ، أو الحيز الذي نعيش فيه . . . ان أيامنا ليست هي الزمان كله ، ومكاننا ليس هو الوجود كله . . . نحن جزء صغير من الدنيا . . وعمرنا بالنسبة للأبد برهة . . آه من ضيق الأفق ، وقصر النظر ، وبلاء العجلة ، وهوى النفوس ، وغرور البشر ، والكبرياء الفارغة . . . » إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء . . . »

ووجدتني على الرغم مني أقول في ذهول :

– « لكن أبي مات . . . وقلبي يغص بالأحزان . . . »

عاد الشيخ يربت على ظهري ويقول :

– « إن العين لتدمع . . . وإن القلب ليجزع . . . وإنا

لفراقه لمحزونون ... هذا حق الأوفياء لمن رحلوا من الأحباء ... لكن لا تجعل من الحزن شعوراً يدمر حياتك ، ويعطل من رسالتك المقدسة . . . إنه شعور نبيل ، وسمة من سمات الإنسان الحق . . . وهو من جانب تقدير ووفاء واعتراف بالجميل . . . ولكن لا تفعل ما يغضب الرب ، أو يتنافى مع العقيدة . . . »

قلت : «سأسافر لأذرف على قبره دمعة . . . »

قال شيخي :

— « يا مسكين . . .إنه هنا معك . . . فلماذا الأسفار ؟.. وركوب الطائرات والأرواح يا بني جنود مجندة . . . ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . . . »

أغمضت عيني . . . شردت . . . خيل إلي أن أبي إلى جواري . . . أخذت احتضنته وأقبله . . . وأبكي . . .

ثم عاد شيخي يقول ...

خالط نفسي أسى عميق ، وشعرت بأن الدنيا أمامي تبدو وكأنها كهف ضيق مظلم تشيع فيه الرهبة والخوف والملل، لم أعد أطيق كلاماً مع أحد ، ولست بقادر على أن أستسيغ طعاماً ولا شراباً،وأمام باب الكهف تكمن الثعالب والذئاب والأفاعي ... هذا الكهف الكئيب الذي يخيل إليّ أنني أعيش فيه لم أصنعه لنفسي ، فما قيمة الحياة إذن تحت وطأة تلك الحالة النفسية القاسية ؟ ؟ لكن المقام لم يطل بي ، إذ سرعان ما تذكرت شيخي الجليل ، عندئذ شعرت بفرحة غامرة ... لكم أحبلك أيها الشيخ ! ! أنت النسمة الحلوة التي تذهب عني قيظ الحياة وآلامها وأحزانها ، عندك لكل سؤال جواب ، لا تغلق باب الأمل أبداً ... دائماً بابلك مفتوح ... وقلبك مفتوح ... وكلماتك الطيبة ترسم لي عالماً من حب وثقة ، وتبشر دائماً بالفجر الجديد ، وتمحو عن قلبي المرتجف عذاباته وقلقه وأوهامه ... أيها النبع الصافي العذب ... إنني سأنتزع نفسي من هذا الكهف ... إنني آتٍ إليك ...

وجمعت شتات نفسي ، وأخذت أجر خطواتي جراً ، وبعد جهد جهيد وصلت إليه ، وجدته أخيراً جالساً في قمته العالية ؛ حوله الصفاء والسكون ، يتطلع بعينين باسمتين إلى السماء الزرقاء ، وكأنه يرتل آيات طاهرات في كتاب الكون الكبير . . . كان ينظر إلى الوجود نظرة عشق قدسي ، ويمجد اسم الله ، ويلهج لسانه بالشكر والدعاء . . . ألقيت عليه السلام ، فشد على يدي بيده الرطبة ، وسألني عن حالي ، فلم أجب ، ثم قلت له :

— « لماذا تجلس هكذا وحدك يا شيخي الجليل ؟ ؟ »

ابتسم في ثقة وقال :

— « من قال أنني وحدي ؟ ؟ لو قدر لك أن ترى ما بقلبي لوجدته يموج بالحياة والحركة . . . ولوجدت به آلاف الأشخاص . . . والأفكار . . . والآمال . . . ثم ألم تقرأ قول الله تعالى : « أليس الله بكافٍ عبده ؟ »

وسجد قلبي لروعة « الكلمة » المقدسة ، وبعد فترة وجيزة تذكرت الآلام العاتية التي تكبل روحي ، وتشل إرادتي ، فصرخت دون وعي :

— « أي شيخي ...الدنيا في نظري أصبحت ضيقة كالخاتم.. وأنا أكاد أختنق . . . »

هز الشيخ مسبحته . ومسح الكائنات من حوله بنظرة شاملة وتمتم :

– « رحم الله شاعرنا القديم حين قال :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيقُ

إن السجون التي نعيش فيها يا بني الصديق هي من صنع أنفسنا ، وحذار أن تلقي بالتبعة على غيرك ، أو تعلق أخطاءك على مشجب الآخرين ، ثم تأتي بعد ذلك لتلعن الحياة والناس ، وتبدأ التفكير عندئذ في الهروب . . . »

قلت في أسى :

– « سيدي الشيخ . . . ليس الأمر كما تتصور . . . إنني أحب الناس ، وأبذل لهم من جهدي ومالي ونفسي الكثير . . . لكني أراهم يغدرون بي ، ويشيعون عني السوء ، ويلفقون لي التهم . . . إذا قلت الصدق والحق ، اتهمني رئيسي « بقلة الذوق » والخروج على طاعته ، وإذا حافظت على كرامتي وإنسانيتي اعتبرها الناس « قلة أدب » أو عدم لياقة ، وإذا استنكرت الكذب والنفاق والرياء ، قالوا عني إنسان متغطرس متكبر ، لا يعرف أدب اللياقة والمجاملة ، وإذا التزمت بآداب الله ، وواظبت على أداء شعائره ، قالوا

تمثيل أو تجارة بالدين ، أو رجعية مقيتة . . . وإذا حافظت على مواعيد عملي ، وقمت بالواجبات المنوطة بي ، زعموا أنني جبان رعيد أخاف على لقمة عيشي ، وليس وراء إخلاصي غير الخوف والجشع والنفاق . . . واليوم جاءني أحد المسئولين عني ، وعاملني بكل غلظة وجفوة . . . كان يصرخ في وجهي ، ويتهمني بالتراخي والإهمال ، ويزعم أنني أتحدى إرادته ، وأخرج عن طاعته . . . نظرت إليه يا شيخي الجليل في دهشة . . . لم أكن أصدق ما يقول . . . إنه ينافي الحقيقة تماماً ، والغريب أن كثيرين ممن حوله هم الكسالى والمتراخون والمنافقون والمهملون والمستغلون ، لكنهم — ويا للعجب — يحظون بعطفه ورضاه ، وينالون التقدير والترقيات ، ويفسح لهم في مجالسه ، ويغدق عليهم بره وعطفه وجوائزه . . . الحقيقة يا شيخي أنني صدمت صدمة كبيرة . . . أأقول له أنت واهم مخدوع ؟ ؟ أأقول له أنت ظالم لأنك حكمت في قضية دون أن تسمع دفاع المتهم عن نفسه ؟ ؟ أم تراني أعترف بما زعم برغم أنه لم يحدث مني ، كي أرضيه ؟ ؟ الحقيقة يا شيخي أن الأرض دارت بي . . . كدت أقع مغشياً عليّ وأنا واقف . . . لكني استندت إلى أقرب مقعد حتى لا أسقط . . . كان لا بد أن أظل واقفاً شامخاً على قدمي . . . وسمعته يقول لي : « يجب أن تغير من نفسك وسلوكك . . . سأمنحك فرصة أخيرة . . . تفضل مع السلامة » . . . كان

مشهداً حزيناً . . . والكارثة الكبرى إن الرجال الواقفين حوله . . . وهم يعرفونني حق المعرفة . . . كانوا يرددون ما يقول كالببغاوات . . . ويؤيدون كلامه على طول الخط.. الواقع يا شيخي الجليل أنني أحسست بخيبة الأمل والضياع . . . وخيل إليّ أن العالم كله فساد ودعارة أخلاقية . . . وتذكرت ما آل إليه أمر الأمة من انحدار وهزيمة . . . فأدركت على التو السر الكامن وراء مأساة العصر الذي نعيشه . . . ثم خرجت من المكتب الكبير صامتاً . . . » وصمت . . . كان قلبي يدق في جنون . . . وكل عضلة في جسدي ترتجف . . .

ورفع الشيخ إليّ وجهه المشرق الباسم ، ثم قال بصوته الندي الرقراق :

— « أتبكي يا بني الصديق ؟ ؟ »

— « على الرغم مني يا سيدي الشيخ . . . »

— « اسمع يا بني . . . الحق لا يموت . . . لأنه من أسماء الله الحي الباقي . . . والباطل يا ولدي كالنغمة النشاز ... إنه مرض من أمراضنا الاجتماعية والأخلاقية . . . إذن فهو شيء طارىء . . . ولا بد أن يزول أو يموت . . . ولو تسلح الباطل بكل سلاح ، وامتد سلطانه إلى كل صقع من الأصقاع .. واستشرى شره في كل جانب من جوانب الحياة ، فإن مصيره

إلى فناء . . . وإن طال الزمن ، وتوطدت أركان نفوذه . . .
ومن أنت يا بني الصديق بالنسبة لرسول الله محمد بن عبد الله (ﷺ) ؟ ؟ لقد كان واقفاً وحده في البداية يدعو إلى الحق . . .
وواجه سلطان الشرك والكفر بكل ما يملكون من مال وسلاح ونفوذ . . . وقالوا عنه مجنون . . . وقالوا عنه ساحر . . .
وزعموا أن آلهتهم الكاذبة قد أصابته بسوء . . . وقالوا إنه يريد أن يكون ملكاً عليهم . . . ورموه بالكذب والإدعاء . . .
واستهزءوا به ، ونكلوا بأصحابه . . . وحاصروه لسنوات في « الشعب » . . . وطلقوا بناته . . . وقتلوا عمه بعد أن فشلوا في قتله . . . وأخرجوه من بلده . . . وافتروا على زوجه . . . لم يتركوا مقالة سوء إلاّ وألصقوها به. . . وبعد هذا كله يا بني الصديق . . . ماذا كان يقول محمد ؟ ؟ « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » . . . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . . . وبعد سنوات قليلة ولدت على هذه الأرض « أمة جديدة » . . . كانت أكبر حدث في تاريخ البشرية الكبير . . . وتحول أعداء الأمس إلى إخوة وأصدقاء . . . وترددت صيحات التكبير بين السهل والجبل ، في المشرق والمغرب ، وساد الحب والعدل والخير ، وقطع دابر الشر ، وذهب الباطل ، ودفنت مع الماضي البغيض رذائل الشرك والكذب والنفاق والظلم ، وسادت قيم جديدة ، أعادت صياغة العقول والقلوب والأرواح . . . أنا لا أقول

يا ولدي أنهم كانوا ملائكة . . . فقد وجد فيهم من يخطىء . . . ثم يذهب إلى نبي الله معترفاً بذنبه ، وبلحظة الضعف التي أوقعته في الخطيئة . . . ويقول له : « طهرني يا رسول الله » ... كانت لديهم الشجاعة لأن يقولوا الحق ، ويعترفوا بالخطأ . . . ومضوا في الطريق الطويل لأجيال كثيرة يبعثون النور في مختلف الأنحاء . . . وهكذا أصبح محمد المطارد المتهم اليتيم الأمي . . . أصبح المثل الأعلى . . . حتى أن كاتباً أجنبياً معاصراً ، من كبار العلماء ألف كتاباً ذكر فيه أعظم مائة شخصية في العالم ووضع اسم « محمد » على رأس القائمة ، وفاتحة الكتاب ، وهو كاتب غير مسلم . . . »

كنت أستمع لشيخي وهو يتكلم في طلاقة وصدق ، كان كمن يعزف سيمفونية رائعة شجية تملك مجامع القلوب والأسماع . . . لقد حلق بي إلى آفاق عليا رحبة ، ترف فيها أجنحة الملائكة ، وتشرق فيها وجوه الحور العين . . . ويفوح في جنباتها أريج عبقري خالد . . .

وأخيراً سمعت شيخي يقول :

– « والآن ما رأيك يا بني الصديق ؟ ؟ »

نظرت من حولي ، فإذا الصمت والسكون ، وعادت إلى ذاكرتي وقفتي الحزينة الذليلة في غرفة المسئول ، ومن حوله

زبانية الفساد ، فاجتاحني الألم والضيق من جديد ، فهتفت في أسى والدموع تكاد تطفر من عيني :

– « لكني يا مولاي لست نبياً ... أنا إنسان ضعيف من لحم ودم وأعصاب » .

قال شيخي أطال الله بقاءه :

– « قلت لك في بداية حديثي : « أليس الله بكافٍ عبده؟ »

– « نعم ... أذكر ذلك ... »

– « إذن فاعلم يا ولدي ، أنه لا موجب لتعاستك وخوفك ، ألا تعلم أن حبيبنا رسول الله يقول فيما معناه : « لا حيلة في الرزق ، ولا شفاعة في الأجل ؟ »

هززت رأسي في خجل :

– « بلى ... »

لقد أدرك شيخي أنني أخاف على لقمة العيش ، وأحرص على الحياة ، عندئذ استطرد :

– « إذن فلن يستطيع أحد أن ينقص شيئاً من رزقك أو يزيد ، ولن يقتطع أياماً من عمرك ولن يطيل ، فالقضية الأساسية هنا يا بني الصديق قضية إيمان قبل كل شيء ...

إيمان بما نتعلم ونقرأ من كتاب الله . . . فمن كان مؤمناً حقاً ، كانت الدنيا تحت قدميه ، وكان الظلمة مهما كبروا أقزاماً أمام عينيه ، لكننا للأسف ندعي الإيمان ، لكننا عند التجربة نتصرف وكأن من يعلوننا في القوة والمال هم القادرون على شيء . . . لقد صنعنا لأنفسنا آلهة زائفة والعياذ بالله ، وكدنا ننسى الإله الحق ، الخالق الأعظم ، ونسينا أننا جميعاً في قبضته ، فقراء وأغنياء ، سادة وعبيداً ، كباراً وصغاراً ، حكاماً ومحكومين ، وهكذا ضللنا الطريق ، ولهذا نرى القرآن يعتب على مثل هذا الصنف من الناس قائلاً : أتخشونهم والله أحق أن تخشوه ؟ »

هزتني كلمات الشيخ هزّاً عنيفاً ، كنت على وشك أن أدفع عن نفسي التهمة القاسية . لكنني سمعته يقول :

— « إذا أردت أن تكون قوياً أمام الناس ، فلتكن أولاً قوياً على نفسك ، خذها بالحزم ، واقتل فيها نوازع التردد والخوف والضعف ، والزمها بالطريق السوي ، واقنعها بأنها لن تموت نفس قبل أن تستوفي أجلها ورزقها ، وقل الحق في رفق ، وارفض الإغراء في أدب ، وادفع عنك الرذيلة والمعصية في ثقة ويقين ، وامتثل لأمر الحق لأنه حق . . . »

وتنهد شيخي برهة . . . فانتهزتها فرصة ، وهرولت مسرعاً . . . وسمعته يقول في أعقابي :

– « إلى أين يا بني الصديق ؟ ؟ »

قلت وصوتي يمازجه البكاء :

– « سأعود إليك غداً . . . بأمر الله . . . »

كنت قد انتويت أمراً لا رجعة فيه ، ولمّ الخوف وقد تيقنت أن الرزق والأجل بيد الله ، وأن إليه المرجع والمآب ؟ . .

في الصباح دخلت مكتب المسئول ، حاملاً أوراقي ومستنداتي ، كان جالساً يشرب فنجالاً من القهوة ، ويتصفح إحدى الصحف اليومية ، ألقيت السلام وقلت :

– « أريد بضع دقائق من وقتك . . . »

ابتسم وقال :

– « تفضل . . . »

قلت وأنا في منتهى الهدوء :

– « هذا عملي الذي أنجزته . . . في يوم كذا . . . في شهر كذا . . . الإحصائيات . . . الجولات التي قمت بها . . . الاحتياجات التي أنا في مسيس الحاجة إليها بخصوص عملي حتى يصل إلى مرتبة طيبة . . . »

وبعد فترة من النقاش قال في رضىً :

— « إنه عمل مشرف لا شك ، ولماذا لم تخبرني بذلك أمس ؟ ؟ »

— « كان الأمر مفاجأة ... لم أتصور أن تنقلب الحقائق رأساً على عقب ، وتصلك الأخبار مشوهة إلى هذا الحد المذهل .... »

عندئذ دخلت فرقة الأمس ... مجموعة المرتزقة الذين يعزفون دائماً اللحن الذي يرضي الرؤساء والمديرين والمسئولين ، وسمعوه يقول لي :

— « في الواقع إن عملك مشرف ، ويدعو إلى الإعجاب والاعتزاز ... أشكرك ... »

وكم كانت دهشتي عندما سمعتهم يرددون نفس الكلمات « الأستاذ فلان فعلاً رجل مخلص ... نعم الرجل ... إن سيرته الطيبة على كل لسان ... »

وجه الرئيس نظرة ساخرة إليهم وقال في امتعاض :

— « اذهبوا إلى مكاتبكم ... وليقدم كل واحد منكم لي في الغد تقريراً مفصلاً عما أنجزه من أعمال فعلاً ، وسوف أتحرى بدقة عن كل شيء ... »

سادهم الشحوب ، وانعقدت ألسنتهم عن الكلام ، ووقفوا جامدين مبهوتين ، فصاح فيهم بحزم :

– « اذهبوا . . . »

فأخذوا يجرون صوب الباب وهم يتعثرون . . .

وعند خروجي كانوا متراصين في الممشى الطويل ، سمعتهم يقولون : « ماذا قلت له عنا ، نحن نجلك ونحترمك ، أنت إنسان نظيف . . . اعمل معروفاً . . . لا تقطع عيشنا . . . نحن أصحاب عيال . . . نعترف أننا ظلمناك . . . عفا الله عما سلف . . . مهما كان فنحن إخوة . . . وأنت صاحب أفضال . . . أنت رجل مخلص فاضل . . . »

ومضيت في الطريق إلى شيخي . . . كنت سعيداً ، ألهج بالثناء شكراً لله ، قدمت إليه في لهفة ، وأنا أهتف :

– « شيخي . . . شيخي . . . لقد تم تصحيح كل شيء . .

أشاح بيده قائلاً :

– « لا تقل شيئاً . . . »

– « كلمة واحدة يا شيخي . . . »

– « قلها . . . »

– « الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين . . . »

– « والأهم من ذلك . . . »

– « الأهم من ذلك . . . ماذا تعني يا شيخي الجليل ؟ ؟ »

وسدد إليّ نظرات ذات معنى . . . أحنيت رأسي في خجل ثم قلت :

– « نعم الإيمان . . . »

ثم تمتمت : « أليس الله بكافٍ عبده ؟ ؟ »

وقال شيخي :

– « قم توضأ . . . فقد حان وقت الصلاة . . . والمسجد قريب . . . »

وأثناء مسيرتنا للمسجد كان شيخي يقول : « النهر يسير ... ويسير . . . ويروي العطاش من الإنسان والحيوان والنبات . . . والناس تقذف فيه الجيف والأوساخ . . . لكنه يسير ويسير ولا يمنع ماءه عن أحد . . . كن يا بني نهراً لا ينضب . . . »

قال شيخي عن المسلمين

قال شيخي : « اعلم يا بني أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن الأدواء التي تنخر في عظامنا ، بلاء مستطير لا بد من تلافيه ، والغريب في الأمر يا ولدي ، أن العلاج الناجع بأيدينا ، والدواء في حوزتنا ، لكن مثلنا كمثل الإبل التي تشق كبد الصحراء الملتهبة ، والظمأ يكاد يقضي عليها ، على الرغم من أن الماء فوق ظهورها ، ورحم الله شاعرنا القديم حين قال :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمولُ

ولست أدري يا بني أهي الغفلة التي تجعلنا ننحرف عن الطريق ، أم هو الضلال الذي أغرقتنا فيه الثقافات والأفكار المستوردة المتحيزة ، أم هو زيغ الهوى ، وشطط الرأي ، وفساد الذمم ؟ ؟ »

قلت له : « معذرة أيها الشيخ الجليل أطال الله بقاءك ، ورطب بالحكمة والصدق كلماتك ، فأنا لم أدرك بعد ، حقيقة

ما ترمي إليه . فإن قولك يشبه الرمز إلى حد كبير » ابتسم شيخي . وقد بدت ابتسامته شاحبة حزينة ، وخيل إليّ أن الدموع تبلل أهدابه ، ثم مد يده وأمسك بجريدة الاتحاد ، وقال : « اقرأ معي هذا الخبر الذي نشرته صحيفة « الجارديان » ونقلته معظم وكالات الأنباء. . . »

وأخذت أقرأ . . . تقول الجريدة : « أصدر البيت الأبيض الأمريكي الأوامر إلى جهاز المخابرات المركزية الأمريكية . بإجراء دراسة شاملة ، حول الحركات الإسلامية ، في شتى أرجاء العالم ، وذلك بعد أن أدت التحركات الإسلامية العنيفة في إيران (إلى ما حدث) . . . ويبدو أن برزنسكي مستشار الرئيس الأمريكي لشئون الأمن القومي ، قد نقل هذه التوجيهات ، إلى قيادة جهاز المخابرات ، يطلب إجراء مسح شامل ، ودراسة مستفيضة للحركات الإسلامية في العالم ، ويؤكد كبار المسئولين في البيت الأبيض أن الحكومة الأمريكية تشعر بحساسية هذا التطور من الحركات الدينية وتأثيراتها المتعاظمة على الخريطة السياسية . . . لقد تعرضت إدارة كارتر إلى انتقادات كثيرة من الكونجرس بسبب أخطاء أجهزة المخابرات الأمريكية التي كانت تنتقص من أهمية المعارضة التي تقودها الزعامات الدينية في إيران . . . الخ » (الاتحاد ص ٨ في ٢٦ – ١ – ١٩٧٩) » .

وطوى شيخي الصحيفة وقال : « لعلك الآن فهمت ما أرمي إليه » قلت له في أسى : « في العالم ما يقرب من ألف مليون مسلم ، لكنهم غير قادرين على تغيير مسار الأحداث في العالم ، ولم يتمكنوا حتى اليوم من التغلب على مشاكلهم العديدة ، التي تعوق مسيرتهم ، بل لم يستطيعوا حتى اليوم أن يلعبوا دوراً مؤثراً في قضية هامة وحساسة كقضية فلسطين أو أريتريا أو الفيليبين وغيرها . . . »

هزّ شيخي رأسه وقال :

— « إنهم مسلمون . . . ولكنهم ليسوا إسلاميين . »

قلت : « زدني إيضاحاً يا سيدي ، فأنا لا أفهم تماماً ما ترمي إليه . . . » قال وهو يمسح على لحيته في أسى : « إن كل من ولد من أبوين مسلمين فهو مسلم... مسلم بشهادة الميلاد ، وبحكم المولد ، لكن كم واحداً من هؤلاء المسلمين استطاع أن يتمثل المبادىء الإسلامية في قوله إذا قال ، وفي عمله إذا عمل ، وفي سلوكه إذا سار بين الناس ، وفي حكمه إذا حكم في قضية من القضايا ، وفي ماله إذا ربح وأنفق ، وبين جدران بيته إذا تعامل مع زوجه وأبنائه وأهله وجيرانه ، وفي ساحة المعركة إذا نادى منادي التضحية والجهاد . . . انظر إلى الشارع الإسلامي في أية مدينة من مدن بلادنا الإسلامية . . . كيف ترى النساء والرجال ، وتجول في

مختلف المؤسسات والدواوين والأندية والمدارس ، هل ترى حقيقة الصورة المثلى لحياة الرعيل الأول من المسلمين الأوائل ؟ ؟ ثم تصفح كتب الفن والأدب . واذهب إلى المسارح ودور السينما ، خبرني يا ولدي بربك ، أما تشاهده في واقع الحياة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بآداب الإسلام وقيمه الفكرية والحضارية؟؟ لهذا أقول لك نحن مسلمون . ولكننا لسنا إسلاميين . . . فالمسلم عندما يتخذ الإسلام منهجاً في الفكر والسلوك يصبح إسلامياً . . . أي مسلماً حقاً . . . ورضي الله عن السيدة عائشة حينما وصفت النبي صلى الله عليه وسلم قائلة : « كان خلقه القرآن » . . . عندما يدرك المسلم يا ولدي هذه الحقيقة الكبرى ، ويعمل بها فتأكد بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه قادر على أن يتحدى العالم ، ولن تستطيع قوة في الوجود أن تقهره أو تغلبه ، لأنه عندئذ يرى بنور الله ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . . . من هنا يا ولدي اهتزت أجهزة المخابرات . . . لا في أمريكا وحدها . . . ولكن في روسيا . . . وإسرائيل . . . وأوربا . . . . العالم كله يشفق إشفاقاً شديداً ، وترتجف أوصاله ، عندما يتخيل أن بوادر « يقظة إسلامية » توشك أن تحل بأية بقعة في العالم . . . العالم كله يدرك أن مبادىء الإسلام هي رمز صحوتنا وانتصارنا وحريتنا ، ويدرك أيضاً إن في ذلك ضياع لثرواتنا الهائلة التي ينتزعها منا بأسلوب أو بآخر . . . »

طأطأت رأسي خجلاً ، وقلت في ألم : « صدقت يا سيدي الشيخ . . . الأمر جد خطير . . . وغيرنا يدرك ذلك ، لكننا للأسف لا نعرف قيمة أنفسنا ، ولا المبادىء العظيمة التي فيها خلاصنا ، ولا الإمكانيات الهائلة التي حبانا الله بها ، وكان من سوء حظنا ، أن بهرتنا المنجزات والمخترعات الزائفة ، ووقعنا تحت تأثير فلسفات الدمار والفناء والمتعة الفانية ، وأخذنا ننظر إلى تراثنا وأمجادنا ومبادئنا على أنها مجرد ذكريات قديمة ، وأدوات صدئة لعصر مضى ، وأدخل المغرضون في روعنا ، أننا في عصر لا يصلح له إلاّ من تخلى عن قيم الماضي وأحلامه ومبادئه . . . وهكذا ضل الركب الطريق ، وتاه في عرض الفلاة التي يحرقها القيظ والخوف والضياع . . . لكن ماذا نفعل يا سيدي ؟ ؟ »

رفع الشيخ رأسه إلى السماء ، كان وجهه هذه المرة ، يشرق بالأمل والفرحة ، كان بصره يرقب زرقة السماء الصافية ، وكأنه يحتضنها إلى صدره ، ثم قال بصوت ندي رقراق : « لكي تبني بيتاً ، لا بد من أساس متين ، تلك حقيقة لا ينكرها أحد ، ومن يتجاهل ذلك ، فإن البيت التي يشيده سوف ينقض يوماً ما على رأسه ، فيسحق حياته ، ويقضي على من معه . . . البناء يحتاج يا ولدي إلى علم وفن ... إلى هندسة . . . وإلى جهد وصبر ، هكذا يفعل الناس في كل صقع من أصقاع العالم، سواء في الشرق أو الغرب ، ولا تظن

يا ولدي أن الحضارة الغربية فساد كلها ، وانحراف شامل .
كلا . . . وألف كلا . . . فهناك أقوام نذروا أنفسهم للعلم والمعرفة ، وآخرون بذلوا النفس والنفيس ، كي ينتقلوا من حياة الكسل والفقر والجهل والفوضى ، إلى حياة الجد والإنتاج ونور العلم ، والالتزام بمبادىء الخير والفضيلة وإنكار الذات..
ولولا هذه الفئة من الناس ، لما قامت لهم مدنية ، ولما تحقق لهم نصر علمي أو حربي أو فني . . . إنهم يدرسون ويحللون ويجربون ، ويبحثون عن الحقائق في مظانها، ويعرفون قيم الأشياء والكفاءات والمواهب ، ثم يوظفون كل ذلك في خلق حياة أفضل وأسعد، لكن أبشع ما فيهم هو أنهم يفكرون في أنفسهم ورفاهيتهم وسيادتهم بالدرجة الأولى ، ونحن نسمي ذلك أنانية وانحرافاً وتعصباً ، وهم يسمونه وطنية ومنفعة وواقعية . . . المهم هو أنهم يتخذون لهم منطلقاً ، ويقيمون لبنائهم الحضاري أساساً متيناً ، في ظل قيم ومبادىء أو فلسفات يؤمنون بها . . . أما نحن . . . فما هو الأساس الذي أقمنا عليه حياتنا الجديدة ؟ ؟ انظر في أنحاء العالم الإسلامي . . .
ماذا ترى ؟ ؟ كلهم مسلمون . . . وكلهم يتشدق بالمجد العريق . . . وصدق شاعرنا القديم إذ يقول :

وكلٌّ يدعي وصلاً بليلى
وليلى لا تقر لهم بذاكا

فما أحوجنا إلى أن نحيل العواطف والكلمات إلى عمل وسلوك ، وليتنا ندرك أن الأموال التي نكدسها ، والنياشين التي نحلي بها صدورنا ، والمناصب التي نتزين بها ، والعمارات الشاهقة التي نشيدها ، والانتماءات الإقليمية التي نتشدق بها ، والنعرات الحزبية والمذهبية والطائفية التي تتحكم في مشاعرنا وفكرنا وسلوكنا . . . ليتنا ندرك أن هذه الأمور كلها لا يمكن بأي حال من الأحوال ، أن تشكل الأساس القوي السليم الصامد للبناء الذي ننشده في عالمنا الجديد . . . ألست معي يا بني الصديق في أن الأساس الأوحد الذي يصلح لنا ، هو الأساس الذي أقام عليه محمد وصحابته من بعده البناء العظيم ... البناء الذي وضع لبناته أي مسلم لا فرق فيه بين أعجمي وعربي وشرقي وغربي ، وأسود وأبيض ؟؟ الكارثة أن أجهزة المخابرات العالمية تدرك ذلك ، وتشفق منه ، وتحاول أن تضع الخطط والبدائل لتوقي الزحف الإسلامي المرتقب ، ونحن في غفلة عن الكنوز العقائدية التي أودعها الله كتابنا ، وعن الكنوز المادية التي رزقنا الله بها في أرضنا وجبالنا وبحارنا وسمائنا . . . ألست معي يا بني الصديق أن لدينا كل المؤهلات الكافية لتجعل منا أمة عظيمة ، تملك زمام أمورها ، وتشارك في صنع أحداث التاريخ الإنساني ، وحركة المجتمعات ، وتشكيل الحضارة الحديثة ؟؟

أي بني . . . قل للإبل الضالة في تيه الظمأ والجوع من

أبناء جيلك المساكين أن الماء والطعام فوق ظهوركم ، بل وتحت أقدامكم ، ولن تروا ذلك إلاّ إذا نزعتم عن أعينكم عصابة الغفلة والتعصب والتقليد . . .

أي بني . . . قل لعلماء جيلك ، أن العلم ليس مجرد « شهادة تخرج » ، ووظيفة فخمة ، ورداء أنيق ، وكلمات منمقة ، وأجرٍ مجزٍ ، وحياة رفهة ، ونوم هنيء ولكن العلم تطبيق ، وعرق ، وجهاد ، وتضحية ، وطريق شاق طويل لا نهاية له . . .

أي بني . . . قل لفلاسفة جيلك ، أن فلسفة الإنسان . . . أي إنسان . . . هي مجرد قصاصات متنافرة متناقضة . وإفرازات ملوثة بالهوى والميكروبات ، وكلمات مضطربة عليلة . . . إذا ما قيست بالحقيقة الكبرى في كتاب الرحمن ... وشتان بين الإنسان وخالق الإنسان . . .

أي بني . . . قل لأبناء جيلك لا تجعلوا اليأس يتطرق إلى قلوبكم ، ولا تسمحوا لنوازع الشك والخوف أن تتسلل إلى أرواحكم ، وانفوا عن عقولكم أدران البلبلة ، وأخلاط الثقافات المصدرة إليكم من أعدائكم ، ومن المخدوعين من مفكريكم ، واصنعوا لأنفسكم مقاييس جديدة ، تقيسون بها قيم الحياة والعلوم والفنون ، هذه المقاييس الجديدة تجدون مادتها « الخام » في تراثكم الرائع . . . تلك التجربة الفذة

التي لا مثيل لها في تاريخ الإنسان . . . عندئذ يمكنكم أن تتحدوا كل مخابرات الدنيا . . . لأن قوى الشر مهما عظمت لن تستطيع أن تطفىء نور الشمس ، أو تثير الاضطراب في نسق مجرات السماء ، فما أراده الله لن توقفه نزوات البشر .

أي بني . . . قل لأبناء جيلك أن يتعلموا لوناً خالداً من الحب العظيم . . . « أن يحب المرء لا يحبه إلاّ لله ، وأن يكره المرء لا يكرهه إلا لله »،عندئذ تصبح الروابط الإنسانية قائمة على أساس القيم العليا المقدسة ، وتنمحي من المجتمعات رذائل المنفعة البحتة ، ورفقة النفاق ، وزمالة الكؤوس ، ونزوات الإقليميات والعنصريات القميئة ، تلك الجاهلية العفنة ، التي ما جاءت رسالات السماء إلاّ لتمحو أثرها ، وتدمر أصنامها ، وتعفي على طقوسها وهياكلها المظلمة . . .

أي بني . . . قل لأبناء جيلك إذا أنجزوا عملاً من الأعمال قل لهم ألاّ يتساءلوا بعده كم حققت من كسب مادي ، ولكن اجعلهم يتساءلون : كم نالوا من رضى الله وثوابه ، فالعالم الذي تسوده مقاييس المادة بربحها وخسارتها ، عالم صنعه الشيطان ، وزين لمن فيه كل ألوان الشر والفساد ، مثل هذا العالم مصيره لا شك إلى دمار وتعاسة وشقاء . . .

أي بني . . . قل لأبناء جيلك أن يصمدوا للامتحان ، وأن يستعذبوا الابتلاء والتضحيات ، وأن يستشرفوا آفاق السعادة الحقيقية . . . سعادة الروح والقلب في طاعة الحق جل وعلا ، وأن يأخذوا من الدنيا بمقدار ، وأن يقبلوا على الآخرة إقبال محب عاشق . . . فهي دار البقاء ، وعندما يستقر ذلك اليقين في نفوسهم ، فسوف تصبح الدنيا غير الدنيا ، ولن يستعصي عليهم أمر ، أو يردهم مستحيل ، أو يعوقهم عائق . . .

والآن ، هل فهمت يا بني الصديق ما وراء الكلمات ؟ ؟ »

كنت كمن يعيش في حلم وردي رائع القسمات والظلال ، وأفقت من حلمي الجميل على سؤال شيخي الجليل ، وتلفت حولي ، فإذا العالم الراكد الآسن كما هو يضج بأزيز المحركات وصخب الشوارع ، وصياح الباعة ، وعبث الأطفال الذين يمرحون هنا وهناك ، وصوت باعة الصحف ، وأغاني المذياع القريب . . . وأبقار تسير في الطريق هائمة على وجوهها . . . وفئة من الشباب يدخنون السجائر ، ويتبادلون النكات ، ويضحكون من الأعماق . . . وشيخ أحنت ظهره السنون ، يقول في ذلة ومسكنة : « لله يا محسنين . . . » وامرأة كاسية عارية تتأبط ذراع رجلها . . . ومعهما أكداس من البضائع

تثقل حركتهما . . . ووسط هذا الضجيج والحركة الموارة ينبعث صوت مؤذن من مسجد قريب . . . « حي على الفلاح ».

وعدت أنظر إلى شيخي قائلاً :

– « نعم سيدي . . . أطال الله بقاءك . . . لقد فهمت . . . »

شيخي يحدّثني عن الغرباء

وعدت إلى شيخي وقد فاض بي الألم ، واقتحمني شعور قاتم بالغربة والأسى ، أنظر من حولي ، فأرى الوجود على صورة غريبة ، الناس يمضون في الطرقات يتكلمون ويشيرون بأيديهم وكأنهم في غيبوبة ، لكنها غيبوبة تشنجية ، حيث يبدو التخبط العشوائي في كل ما يفعلون ، أو هكذا خيل إليّ ، ترى هل اختلت الموازين لديهم ، أم أنا الذي أصبحت غير قادر على التمييز أو إدراك حقيقة الواقع والحياة . . . وعدت إلى شيخي أحمل حيرتي وعذابي وفي رأسي تساؤلات لا حصر لها .

نظر إليّ شيخي بعينيه الثاقبتين ، وتمتم :

« أراك اليوم كباقي الخلق حيرة وذهولاً . . . »

طأطأت رأسي وهمست :

ـ « لست أدري ماذا أقول يا شيخي الجليل » .

مسح على رأسي بيده الندية ، وحوقل ثم قال :

— « وماذا يفيد الكتمان ؟ ؟ فلتفرغ ما بقلبك ، عندئذ يخف العبء عليه ، ثم لعلنا نستطيع معاً أن نصل إلى فهم الحقيقة . . . »

قلت والحزن يوشح كلماتي المرتعشة :

— « وما قيمة أن نعرف الحقيقة ، ثم لا نغير شيئاً ؟ ؟ »

ابتسم في إيمان وهمس :

— « المعرفة هي الخطوة الأولى على الطريق الصحيح . والخطوة تتبعها خطوات وخطوات ، ما دمنا نعتصم بالأمل ، ونتخذ من الإيمان مركباً . . . »

وبعد فترة صمت ، استطرد شيخي :

— « قل ولا تخجل ، فأنا أعلم أنك كنت على وشك الزواج . . . »

هززت رأسي قائلاً :

— « نعم . . . أحببتها . . . لا أخفي عليك يا شيخي الجليل . . . لست أدري لماذا اختارها قلبي هي بالذات دون غيرها من بنات حواء . . . ربما لأنها كانت شجاعة ، تقول كلمتها دون خوف ، وتدافع عن رأيها في استماتة ، وتعبر عن فكرتها بوضوح ، ولا تخضع للإغراء . . . كانت يا

شيخي الحبيب تتدفق حيوية وجمالاً ، في ابتسامتها قوة جذب هائلة . . . وفي عينيها بريق يأسر القلوب . . . »

ابتسم شيخي وقال :

— « يبدو أنك أطلت إليها النظرة الأولى . . . »

عندئذ شعرت بنوع من الإثم ، وأدركت أنني أبحث لنفسي أكثر مما يجب وأنا أرصد حركاتها وسكناتها وتفاصيل ملامحها ، وقلت في صوت خفيض :

— « لا مجال للإنكار . . . اعترف أنني كنت أرقبها . . . والنظرة أصبحت نظرات ونظرات . . . إنها زميلتي في المكتب . . . قد لا يكون الذنب ذنبي ، ولكنها طبيعة الحياة التي فرضت علينا تلك الأوضاع حيث يختلط الرجال والنساء في العمل ، وحيث يحدث التعامل الذي لا مفر منه . . . نحن لا نستطيع أيها الشيخ الجليل أن نرتب كل شيء في الحياة على هوانا . . . »

وبدا شيء من الأسف على وجه شيخي ، فقال في شيء من الحدة :

— « أكمل حديثك . . . هذا أمر آخر يحتاج إلى تفصيل :

أخذت أعبث بأناملي في خجل ثم قلت :

- « وطلبت منها الزواج . . . هكذا دون مقدمات . . .
لقد بدت عليها الدهشة في أول الأمر . . . لم تجب بلا أو نعم . . .
وتكلمت عن أشياء كثيرة منها أننا لم نعرف بعضنا حق المعرفة .
ولم تتح لنا فرصة اللقاء خارج نطاق العمل ، ولم نضع عواطفنا
في محل التجربة بعد . . . قلت لنفسي التجربة ؟ ؟ ما معنى
ذلك ؟ ؟ وجمح بي الخيال إلى معانٍ مخجلة لا تليق بي . أيمكن
أن أفعل ذلك ؟ ؟ إنه أمر يتنافى مع أخلاقياتي . . . قلت لها
إن ما تفكرين فيه حرام . . . حرام . . . ضحكت من أعماقها ،
وقد ألقت برأسها إلى الخلف ، فانسدل شعرها المرسل على
مؤخرة المقعد . . . وهمست : « مسكين ! ! أنت تعيش
في العصر الحجري . . . انظر حولك . . الدنيا تغيرت . . .
الزواج لم يعد لعبة حظ . . أريد رجلاً يعيش في الواقع . . .
ويعرف كيف يستمتع بالحياة . . . أريد رجلاً أفهمه
ويفهمني . . . » كانت كلماتها يا شيخي الجليل كالزلزال . .
اهتز لها بدني كله . . . وعقلي أيضاً . . . »

وكم كانت دهشتي عندما سمعت شيخي يقول :

- « ليس كلامها خطأ كله . . . لقد اختلط فيه الحق
بالباطل ، والسم بالدسم . . . »

همست وقد ازدادت حيرتي واضطرابي :

- « كيف هذا . . . أفصح يا سيدي . . . فإن الأمر
يقلقني . . . »

مد شيخي ساقه ، وتنهد ثم قال :

— « ألم نقل أن الفهم هو الخطوة الأولى على الطريق الصحيح ؟ ؟ »

— « بلى . . . »

— « أي بني . . . عندما بشر محمد صلى الله عليه وسلم بدعوته . . . كانت الجاهلية تملأ القلوب والعقول ، والشوارع والبيوت ، والمحافل والأسواق ، ودواوين الحكم والحرب . . . وكان الفساد متمثلاً في الظلم . . . والدعارة . . . والخمر . . . والعنجهية ووأد البنات . . . والشرك بكل ألوانه . . . لكنه لم ييأس . . . نادى بكلمات الله . . . وخاطب أساطين الضلال والفساد . . . كان يناقشهم ويحاجهم . . . ويتلقى اعتراضهم وسبابهم ومكائدهم بصدر رحب . . . لقد تصدى لعمل معجز وهو أن يغير الأفهام والسلوك . ويوجه الناس كي ينظروا إلى الكون والحياة والمعتقدات بأسلوب جديد، متحرر من مواصفات الماضي ، ورواسب التاريخ المنحرف . . . و . . . وانتصر . . . »

قلت وكأني نسيت تفاصيل ما تعلمته من جديد :

— « بالصبر . . . والإيمان . . . والإصرار مهما كانت التضحيات . . . »

وعادت إلى ذاكرتي أيام الدعوة الأولى ، إنني أعرف الآن أكثر من أي وقت مضى عظمة النبي المختار ، ذلك الذي صنع أمة ، وأنا عاجز عن أن أغير من نظرة امرأة . . . امرأة واحدة لا تزن أكثر من خمسين كيلوجراماً...هل أنا تافه إلى هذا الحد ؟ ؟ والكارثة هي أنني ما زلت أحبها . . . أيها القلب الأحمق . . . كيف تبيح لنفسك أن تظل متعلقاً بأذيال من تمنعت عليك بالكبرياء ، وقهرتك بالدلال ، وأذلتك بالحب، وأخذت تملي عليك شروطها المجحفة ، وتخرج بك عن دائرة المبادىء والآداب التي تربيت عليها. . . لا . . . لا . . . لا بد أن أتخذ موقفاً واضحاً إزاء هذه المهزلة . . . ولا بد أن أسجن قلبي في قلعة الالتزام والقيم التي آمنت بها . . . فلتذهب تلك المغرورة إلى الجحيم . . . إنها ليست لي ولست لها . . . وسمعت شيخي يقول :

— « فيم تفكر ؟ ؟ أرى على وجهك سمات الغضب والثورة . . . »

قلت وأنا أجفف عرقاً تقاطر على وجهي :

— « لقد فهمت الآن . . . نعم . . . فهمت أنني وهي جد مختلفين . . . فليذهب كل منا لحال سبيله . . . »

أمسك شيخي برأسي ، وضمها إلى صدره في حنان حتى لامست لحيته البيضاء جبهتي الملتهبة ، ثم تمتم :

— « مسكين . . . أنت ما زلت تحبها . . . آه . . . وكم للشباب من طفرات وعجائب وتناقضات . . . أي بني . . . لقد كنت شاباً يوماً ما . . . أنت تحبها . . . »

صرخت في حدة :

— « لن أبيع ديني بدنياي » . . .

عاد شيخي ينظر إليّ في عطف ويقول :

— « حاشا لله . . . لم أقل ذلك . . . »

ثم أردفت :

— « ولن أفاتحها في الأمر مرة أخرى مهما حدث . . . »

ومد شيخي يده بالمصحف ، ثم قال :

— « تعال نقرأ آيات من كتاب الله . . . حسناً . . . ابدأ بسورة يوسف . . . »

* * *

وعدت إلى عملي في المكتب ، كنت أنهمك في إنجاز ما وكل إليّ من أعمال ، وألقي السلام على الجميع دون تخصيص، وأتجنب النظر إليها ، إذا كلمتني أرد باقتضاب ، وأحياناً قليلة أشرد ، فأجد نظراتي تتجه إليها على الرغم مني ، وسرعان ما استرد تلك النظرات المتمردة ، ولم أستطع الاستمرار على

تلك الحال ، ولهذا اتخذت قرارين : أولهما الانتقال إلى غرفة مجاورة ، وثانيهما البحث عن زوجة أخرى ، ونفذت فعلا القرار الأول ، ولم تكد تمضي بضعة أيام حتى فوجئت بها تدخل مكتبي . . . رفعت عيني من فوق الأوراق فوجدتها أمامي بلحمها ودمها . . . تلبسني اضطراب مباغت . . . سمعتها تقول :

— « كلما نظرت إلى مكانك الأول الحالي شعرت بألم شديد . . . بل أحسست بالذنب . . . واعتصرني الندم . . . وخيل إلي أن شيئاً هاماً ينقصني . . . »

انعقد لساني فلم أستطع الرد ، كان قلبي يدق ، ثم أحسست أن أنغاماً ملائكية شجية . . . حلوة تغمر المكان . . . يا إلهي ! ! ما هذا الضعف الذي انتابني ؟ ؟ ورأيتها تجر مقعداً وتجلس على مقربة مني . . . رحبت بها بكلمات متلعثمة لا تشكل عبارة كاملة . . . فكرت في أن أسحق ضعفي . . . لكني سمعتها تقول :

— « عرفت عنك كل شيء . . . نقلت التفاصيل إلى أبي وأمي . . . الحقيقة أن الأسرة كلها ترحب بك . . . ثم إن لي أخاً يعرفك. . . ومسكننا في الدور السابع . . . لكنك لن تتعب إذ يوجد هناك مصعد . . . »

حاولت أن أقول أي شيء :

ـ « المصاعد تتعطل كثيراً في هذه الأيام . . . »

قالت وهي تبتسم في رقة :

ـ « إذن لا مناص من أن تصعد الدرج إذا أردت . . . »

ولست أدري لماذا قلت على الفور :

ـ « الناس يسخرون العلم والملايين للصعود إلى القمر ... »

أشرق وجهها بالسعادة . . . وضحكت وهيَ تقول :

ـ « أتستطيع أن تقول مثل هذا الكلام أيضاً . . . »

ـ « بل وأكثر منه عندما نتزوج . . . »

وتذكرت فجأة أمراً هاماً ، اعتدلت في جلستي وقد استعدت ثقتي وهدوئي ، واستطردت :

ـ « هناك بعض الأمور التي لا بد منها . . . »

ردت مسرعة :

ـ « الصداق . . . أعرف . . . هذه مسألة لن تكون محل خلاف . . . »

قلت :

ـ « هناك ما هو أهم من الصداق . . . »

قالت : « ماذا ؟ ؟ »

قلت :

— « أنا رجل أخشى الله ، وألتزم بآداب دينه . . .
وحبي لك يجعلني أطلب منك الاحتشام في الزي . . . والسلوك
العام في المجتمع . . . وموضوع الاختلاط . . . »

قاطعتني قائلة :

— « هذه مسائل تتعلق بالمظهر دون الجوهر . . . »

قلت في رقة متعمدة ، وأنا أحاذر من إغضابها :

— « لا مجال لإبداء الرأي في أمور حددها الدين . . .
وقد أراد الله لنا بهذه الآداب حياة سعيدة نظيفة . . . إنها
بمثابة الوقاية من الأمراض ..الأمراض الأخلاقية والاجتماعية..
والدين مظهر وجوهر في نفس الوقت . . . أم أنك تسمين
ذلك رجعية وتخلفاً ؟ ؟ »

نظرت إليّ في شيء من الحيرة والدهشة ، وبقيت صامتة
لفترة ثم قالت :

— « لا يمكنني أن أخدعك . . . إنني أحياناً أشعر بشيء
من الضيق حينما يملى عليّ شيء يناقض طبيعتي . . . لكن الأمر
بالنسبة للمسائل الدينية يختلف . . . »

قلت في سعادة :

العبودية لله عز وسعادة . . . »

قالت :

– « وفي ظل الحب يمكننا أن نتغلب على كل المشاكل... »

* * *

ذهبت إلى شيخي ، كان يطيل السجود والركوع ؛ انتظرت حتى فرغ من صلاته ، كانت اللهفة الحارقة إلى إخباره بالأمر تشعل كياني كله، لكن هدوءه كان مثل قطرات قدسية باردة من الأمن والسكينة . . . ونظر إليّ مبتسماً وقال :

– « إنني أقرأ كل شيء على وجهك . . . السطور واضحة جلية . . . وعيناك تنبئان عما يعتمل في قلبك . . . هذه علامات أعرفها جيداً . . . فماذا تريد أن تقول ؟ ؟ »

أحنيت رأسي في خشوع وقلت :

– « لم يبق شيء أقوله . . . »

قال : « لكنك تريد أن تتكلم . . . الإناء ينضح بما فيه » والسماء لا بد أن تمطر . . . والنهر يا ولدي الحبيب يشق طريقه من المنبع إلى المصب . . . والشمس لا تستطيع أن تكتم حرارتها وشعاعها . . . تلك سنة الكون وطبيعة الحياة . . .

وحديثاً قال أحد الصالحين الشهداء : « الجموا نزوات العواطف بنظرات العقول ، واشعلوا أفكار العقول بلهب العاطفة . ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلاّبة . . . أي بني . . . إن قدر الله هو نظامه . . . فاستعن بالله . . . وسر على بركة الله . . . »

وعدت أقول :

— « حفظك الله يا شيخي . . . لقد كنت أحيا في هذه الدنيا كالغريب . . . »

رد شيخي في إيمان عميق :

— « طوبى للغرباء . . . »

قلت : — « والناس من حولي ينكرون علي الكثير من سلوكي وتصرفاتي وأفكاري ، مع أني على حق ، وهم على باطل . . . »

ورد شيخي مرة ثانية يقول :

— « طوبى للغرباء » . . .

ثم أردفت :

— « وجاءت هي مثل الناس . . . ترفض الانصياع إلاّ للواقع الأليم ، وتأبى إلاّ أن تسير في ركاب القطيع الكبير . . .

كانت صدمة زلزلت كياني حتى خيل إليّ إنني ربما أكون أسير في طريق خاطىء . . . ثم صبرت . . . كما قلت لي . . . واعتصمت بالله . . . وجاءتني هي بالأمس لتعلن موافقتها على الزواج . . . الحقيقة إنني لم أكن أصدق . . . »

مسح شيخي على رأسي وقال :

— « يقول سيدي وحبيبي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الخير فيَّ وفي أمتي الى يوم القيامة . . »

وهمست في سعادة : « نعم . . . »

الفنّ الّذي نريد

يقول الشاعر الفيلسوف الدكتور محمد إقبال رحمه الله في قصيدة من قصائده الرائعة :

إن سرت في اللحون دعوة موت

حرم الناي عندنا والربابُ

إن شاعرنا العظيم يحدد في هذه الكلمات الموجزة رسالة الفن في الحياة ، ويحدد أيضاً المنبع والمصب اللذين يرسمان رحلة القلم ، وريشة الفنان ، ومجال المفكر ، فالكلمة والصورة والنغمة كلها في خدمة الإنسان الذي كرمه الله ، وجعل له السيادة على الوجود ، ووضع في عنقه المسئولية الكبرى ، وكلفه بحمل الأمانة الثقيلة ، من أجل أن تسود العدالة والحب والخير بين الناس ، فيسعد الجميع ، في ظل مبادىء وقيم واضحة المعالم ، تنشر ظلها الوارف على البشر ، أبيضهم وأسودهم ، دون تفرقة من لون أو جنس أو دين . . .

فالفنان الأصيل — في ضوء تلك المعاني الخالدة — فنان ملتزم ، يدرك أبعاد المسئولية المنوطة به ، ويعرف أنه محاسب

على كل ما تجود به قريحته ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ومن هنا كان للفن قداسته ، وكان للفنان المؤمن مكانته الرفيعة ، التي تجعله يحظى برضى الله ، وحب الناس ، وراحة الضمير . . .

ومن البديهي أن الفن يلعب دوراً خطيراً في تشكيل وجدان الإنسان ، والإيحاء إليه بالمشاعر المتنوعة ، والانفعالات المختلفة ، ويستثيره كي يفعل فعلاً معيناً ، أو يتخذ موقفاً خاصاً ، إزاء أية قضية من القضايا التي يواجهها ، وعند اصطدامه بأية مشكلة من المشاكل الحياتية ، في أي مجال من المجالات ، ولهذا فإن انتشار الفنون في عصرنا ، جعلها عاملاً هاماً وحاسماً في بلورة القيم والمبادىء التي تسود المجتمعات سواء في الشرق أو الغرب ، بل جعلها وثيقة الصلة بكل الفلسفات المعاصرة ، فلا نكاد نجد مذهباً من المذاهب السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية إلاّ ويتخذ من الفن مركباً كي يصل به إلى القطاعات العريضة من البشر ، حتى يؤثر فيها ، ويوجه فكرها ومن ثم يدفع بها إلى سلوك جديد ، يرتبط بالقيم التي يدعو إليها هذا المذهب أو ذاك ، بل إننا نرى الفنون وقد تشعبت إلى مدارس مختلفة بتأثير تلك المذاهب الفلسفية ، وهكذا نشأت المدارس الواقعية والرومانسية والكلاسيكية والطبيعية والوجودية والعبثية وغيرها . . .

ولا شك أن تنوع هذه الاتجاهات الفكرية ، قد حدد لكل منها مساراً يختلف عن أقرانه ، مما أدى إلى زرع التناقضات والصراعات العنيفة ، في كل مكان من أنحاء الكرة الأرضية ، وهو – وإن كان في ظاهره ثراءً في الفكر والفن – إلاّ أنه ساهم في خلق التمزق في الوحدة الاجتماعية ، وحطم الكثير من الرضى النفسي ، والسلام الروحي في شخصية الفرد ، لأن أغلب هذه الاتجاهات تنبع من ظروف محلية خاصة ، أو نزعات شخصية مريضة ، أو مظالم اجتماعية منحرفة ، أو نزوات تعصبية وعنصرية . . .

الفن إذن عامل هام في تشكيل الوجدان ، وتحديد الشخصية ورسم السلوك الفردي والجماعي ، ومن هنا كان اهتمام الفكر الإسلامي به قديماً وحديثاً ، وقد كان من الضروري أن يرتبط الفنان المؤمن بالقيم الروحية التي أنزلها الله على رسله ، لأن فيها العصمة من كل زيغ ، والنجاة من أي انحراف ، والحماية من السقوط أو التردي في مهاوي الأنانية والحزبية والعنصرية الضيقة « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » صدق الله العظيم . . .

والفهم الذي يستقر في أذهاننا إذن هو أن الفن يرتشف ويتغذى بلبان العقيدة السمحة ، ويبشر بها ، ويتشرب روحها

ومبادئها . ويسير في ركابها . عندئذ يمكننا أن نعتبر الفن عامل بناء ، وحركة إيجابية في المسيرة الاجتماعية . وبتعبير أدق دعوة إلى حياة . . . حياة تجود بالخير والحب والفضيلة . وتبعث الأمل والثقة في قلوب الجميع ، وتعزف لحن الأخوة والصفاء والوئام للمتعبين والكادحين ، فيمضون في الطريق الطويل سعداء مبتهجين . ويبذلون الطاقات الهائلة من أجل بناء عالم يسوده العدل والحرية وتكافؤ الفرص للجميع سواء بسواء . . .

أما الفنون التي تنشر اليأس والقنوط . وتشحن النفوس بالحقد والكراهية ، وتثير الحروب والفتن والصراعات الحمقاء بين الإخوة من بني البشر ، وتؤرث الأحزان والسخط . وتدمر معاقل الإيمان واليقين ، فهي فنون مدمرة لروح الإنسان وإرادته وآماله الحلوة ، أو كما يقول شاعرنا الفيلسوف « دعوة موت » ، وهي بهذه الصفة المرذولة . تعتبر حراماً . لأنها تشبه إلى حد كبير جريمة القتل . وإن كان الموت هنا موت الأرواح أو النزول بها إلى مهاوي اليأس والتمزق والضياع .

وإذا نظرنا إلى التراث العالمي المعاصر . لوجدنا ركاماً هائلاً من القصص والمسرحيات ودواوين الشعر والأفلام السينمائية واللوحات الفنية وغيرها ، كلها تئن تحت وطأة الإثم والتحلل والسخط واللامبالاة . وتعبر عن الرغبة المجنونة

في الهدم والتدمير . والرفض الصاخب لصور الحياة السائدة . هذه الإرهاصات — برغم حكمها الصارم الصحيح على الانحراف الحضاري — إلاّ أنها تدفع إلى الهدم ، ولا تبشر بأسلوب جديد ، وفكر أصيل ، يرشدنا إلى الطريق البناء على أساس سليم . . .

فلنحذر موجة التقليد السائدة التي تكاد تسيطر على فنوننا ، ولنلتزم بالفن الباني الهادف ، الفن الذي يحيي ولا يميت ، ويبشر ولا ينفر ، الفن الذي يلقي بالأضواء الكاشفة في كل مناحي الحياة ، ويأخذ بأيدينا إلى طريق الحب والخير والجمال.

التيارات الأدبيّة المعاصِرة

في أدبنا اليوم عاصفة هادرة تجتاح الفكر والفن . وتثير الكثير من التعليقات والتفسيرات . ومن الطبيعي أن تخلّف هذه العاصفة جدلاً صاخباً لا يهدأ أواره . في عالم تشابكت فيه المصالح ، وزادت الارتباطات السياسية والاقتصادية والفكرية . عالم لم تعد فيه أية أمة بمادرة أن تعيش في معزل عن الأمم الأخرى .

لقد أصبحنا نسمع الكثير عن أدب اللامعقول واللاانتماء وعن جماعات الساخطين والرافضين في أوربا وأمريكا ، لم يعد الخلاف إذن محصوراً بين المذاهب الأدبية القديمة المعروفة من كلاسيكية ورومانسية وواقعية وفرويدية وغيرها ، بل اتسع مداه ، واختلطت الفلسفة بالأدب والفن اختلاطاً غريباً أكثر من أي عصر مضى . ومن ثم رأينا في بلادنا العربية نماذج مشابهة لتلك الصيحات المستحدثة في العالم الغربي . . .

إن ما ظهر في الغرب من تيارات أدبية له دلالاته العميقة . كما أن له أسبابه الواضحة ، ولا يمكن أن تمر هذه الظواهر دون أن ندرسها ونحللها ونفسرها ، ونحاول قدر طاقتنا أن

نحكم عليها، ومن الخطأ البَيِّنْ أن نحاول تقليدها دون روية أو تمعن ، فإن لكل بيئة ظروفها ومشاكلها الخاصة . وسماتها المعينة . وجذورها التاريخية والدينية ، وأوضاعها الاقتصادية والسياسية .

والأمر الذي لا يماري فيه أحد هو أن هذه النزعات الغريبة تعبير عن واقع معين . . . عن القلق الذي يعانيه إنسان الحضارة الحديثة . . . عن التمزق والخلل النفسي الذي يتلظى بنيرانه ، وتعبير عن التناقضات والصراع العنيف الدامي . . . عن الخوف من الغد في ظل الرعب الذري . . .

لقد خطا العلم خطوات جبارة نحو الاكتشافات والمخترعات ومكن للإنسان – في كثير من الدول – رغداً مادياً لا بأس به ، فامتلأت معدته – أو كادت – بالطعام والشراب ، وغصت رأسه بالعلوم والفلسفات ، لكن روحه ظلت خاوية ، فغزا الرعب قلبه ، ولم لا تشعر روحه بالظمأ ، ويمتلىء قلبه بالفزع ، وقد خاض حربين طاحنتين كبيرتين ، وحروباً محلية كثيرة ظالمة ، أريقت فيها الدماء ، وسقط ملايين الضحايا بسلاح الحرب والجوع والدمار النفسي . . . وجاء السلام . . . لكنه كان سلاماً كاذباً ، فقد بدأت الحروب الباردة ، والصراع على مناطق النفوذ ، والتسابق الذري المجنون ، واللعب بمصائر الدول والشعوب . . .

من هنا نرى أن إنسان العصر الحديث إنسان مريض نفسياً . . . ومن العسير أن نجد العلاج الناجع السريع لضحايا الدمار أو الانهيار النفسي . لأن الخلل الناجم تولد عن الأساس الحضاري نفسه ، أو بسبب القيم الجديدة التي صنعتها مادية القرن العشرين . . . من الخواء أو الفراغ الروحي . . . من الظمأ الذي لا يمكن أن ترويه آلاف النظريات والمخترعات الحديثة ، والتكنولوجيا المتطورة ، وليس من باب الصدفة أن نرى غالبية تلك التيارات الفنية المنحرفة تتسم بسمة عامة هي التحلل والانفلات من القيم الروحية ، بل والسخرية منها ومن ينابيعها المعطاءة كالشرف والفضيلة والطهر والعفاف ، وليت هذه التيارات وجدت سعادتها في هذا الرفض والجحود ، بل تلفتت حولها فإذا بها تضرب في تيه مظلم مخيف لا نهاية له ، يمطرها بوابل من الشقاء والتعاسة والأسى .

ولهذا نرى أن أهم ما يميز آدابهم السمات التالية :

أولاً — السخرية والاستهزاء بالأسلوب المنطقي المعقول . فيخرج إنتاجهم مجموعة من التهويمات وأحلام اليقظة العفنة ، التي قد لا يربط بينها رابط ، إنها مجرد هذيان وتشنجات عصبية عالية النبرة ، غامضة المعنى ، ضائعة المضمون .

ثانياً — التشاؤم ، إذ أن نظرتهم إلى الحياة والناس نظرة سوداء عدوانية ، لا تنبض بأمل ، ولا تشرق بحب . ولا يفوح منها أريج السعادة والصفاء .

ثالثاً — الهروب . . . فهم يهربون من الماضي بكل ما فيه من قيم ، ويهربون من الحاضر الذي يملؤهم بالأسى والخوف ، ولا يريدون أن يروا في الضوء عوراتهم ومساوئهم ، ومن ثم تهدر ألسنتهم وأقلامهم باللعنات . . . حتى لكأن مجرد الصراخ والهذيان وصب اللعنات . . . هو الحل . . . وهو الهدف . . . ولا يفكرون في عمل جدي متزن لإصلاح ما فسد .

رابعاً — عقدة الذنب ، فهم يشعرون دائماً أنهم مذنبون . . . وهذا حق ، لأنهم يحملون على كاهلهم — سواء وعوا ذلك أم لم يعوه — تاريخاً طويلاً من إذلال الشعوب الضعيفة ، واستنزاف ثرواتها ، والفتك بأبنائها ، وتدمير أخلاقياتها ، والعبث بتراثها وتاريخها ، وطمس حقائق فكرها وإسهامها في الحضارة الإنسانية . . . الحضارة الغربية فتنتها القوة ، فاندفعت في رعونة وأنانية ، دون وازع من خلق أو ضمير أو دين . . .

وإذا كان لهذه الآداب المضطربة قيمة تذكر ، فإن حسنتها الوحيدة هي التعبير عن واقع مرير أليم ، عن حضارة مريضة، وما الفنون الآن التي نراها عندهم في غالبية الأحيان إلا أعراضاً وعلامات لتلك العلل الدفينة ، مما يساعد على التشخيص والتفكير في العلاج الناجع . . . فهي بإيجاز حضارة اكتنز جسدها أو جانبها المادي ، واضمحلت روحها أو قيمها الدينية، برغم ما ترتديه من أزياء فاتنة ، وبرغم ما تضعه على وجهها من مساحيق الزينة ، وأنواع « المكياج » المختلفة التي تقدم « ممثلين » على مسرح الحياة، فيبدون في صورة تختلف تمام الاختلاف عما تنطوي عليه عقولهم وأرواحهم . . .

ترى ، هل عالمنا العربي يقاسي من نفس المحنة ، أو يرزح تحت نفس الظروف والأوهام والانحرافات التي عانى منها الغرب ؟ ؟ إنني أوجه هذا السؤال لمفكرينا وأدبائنا الذين يروجون « للبدع الغربية » ، وينساقون وراءها دون تروٍ ، وينتشون بخمر اللاانتماء واللامعقول والسخط والرفض . . .

لماذا لا يكون أدبنا مرتبطاً بتراثنا نحن ، وواقعنا نحن ، ومعبراً عن آمالنا وآلامنا ، ونابضاً بقيمنا الروحية الخالدة التي تضم أشرف وأغلى ما يرقى بالإنسان – أي إنسان – وتحقق التوازن والاتساق والمنطقية ؟ ؟

ولا بد من كلمة موجزة عن « اللامعقول » في أدب

توفيق الحكيم ، بعد أن قدم للمسرح مسرحية « يا طالع الشجرة » ومسرحية « الطعام لكل فم » . وقدم دراسة بقلمه عن تجربته الجديدة . . .

إن ما قدمه توفيق الحكيم في هذا المجال ، يبعد كثيراً عن ذلك اللون القاتم من أدب اللامعقول في الغرب . . . بل أنه أدب معقول جداً ، حيث تختلف دلالاته وإيحاءاته وأسلوبه عما يكتبه دورنيمات وأونيسكو وبيكيت وغيرهم ، وتصوري أن المستوى الفني لهاتين المسرحيتين عند توفيق الحكيم أدنى من إنتاجه المسرحي السابق ، وهذا يعطينا دليلاً آخر على أن الجري خلف البدع المستوردة لا يكون دائماً خطوة إلى الأمام .

وهذا لا يعني أن نغلق النوافذ والأبواب، ونتقوقع داخل قمقم من العزلة والأفق الضيق والتعصب ، بل لا بد أن نكون مستعدين دائماً لاستيعاب التجارب الجديدة ، دون أن نفقد أصالتنا وتميزنا والالتزام بقيمنا الخالدة . . .

الحرّية أصلٌ من أصُول حضارتنا

حين أشرق فجر الدعوة الإسلامية على ظلام الجاهلية المدلهم ، كان ذلك إيذاناً بميلاد عصر جديد ، وعلامة بارزة شامخة من مفاخر التاريخ الإنساني منذ الخليقة حتّى يومنا هذا وكان ذلك النور الإلهي رمزاً لقيم خالدة ، تنظم علاقة الفرد وأخيه، ودور الحاكم والمحكوم ، ووشائج الصلات الدولية. وتضع مناهج ميسرة بناءة واضحة ، لشبع الروح والجسد والفكر للانسان . كانت هذه الدعوة صيغة فريدة للتوازن على مستوى الفرد والجماعة ، فلم تترك ثغرة من الثغرات إلاّ وعالجتها بما يلائمها ، ولا تساؤلاً من التساؤلات الحائرة . إلاّ ووضعت لها الجواب الشافي . ولا مشكلة من المشاكل المستعصية إلاّ ورسمت لها الحل الأمثل . . .

وهكذا استطاع الناس أن يسيروا على هُدًى وبصيرة ، لأن الأسس التي قام عليها نظام الحياة الجديدة كان مستمداً من وحي الله وسنّة رسوله ، ولم تكن هذه الأسس من إفرازات حاكم مستبد متعالٍ ، يضفي على نفسه وكلماته وقوانينه

صفة القداسة أو الألوهية ، ولم تكن نتاج عقل إنسان معتل الصحة ، مريض النفس ، معقد العاطفة ، وشتان بين عظمة الخالق ، وضعف المخلوق وتقلبه . . . وفي كلمات قصار وضع الرسول صوات الله وسلامه عليه قاعدة الحرية الأصيلة ، حين قال :

« الساكت عن الحق شيطان أخرس » .

نعم أصبح قول الحق أمراً يدخل في نطاق الإيمان والتقوى ، أصبح تكايفاً لكل مسلم ، تتضح أمامه صورة الحق والباطل ، ويعرف مقاييس الهدى والضلال ، ويرى الحد الفاصل بين العدل والظلم ،أو الاستقامة والشطط . . . وليس البشر — حكاماً ومحكومين — معصومين من الخطأ ، ومن هذا المنطلق ، كان لا بد أن تسود قيم الحرية ، حيث يقدم الرأي منزهاً عن الهوى ، مرتبطاً بالمبادىء السامية التي ترعرعت في روض الكيان الإسلامي النظيف . . .

ثم جاء أبو بكر الصديق ليعلن قولته المشهورة التي أصبحت بمثابة عهد وميثاق بينه وبين شعب الرعيل الأول في الجزيرة العربية آنذاك ، وليخط للأجيال القادمة المنهج السليم لحياة أوفر سماحة وعدلاً وسعادة . . . قال أبو بكر .

— « الصدق أمانة والكذب خيانة . . . »

— « أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم . . . »

— « إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني . . . »

ثم يجد الحاكم بعد ذلك من يقول له من الناس :

— « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . . . »

كان هذا الكلام يقال منذ ما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولو نظرنا آنذاك إلى العالم المعمور لهالنا الفرق الشاسع بين ما يحدث في تلك البقاع الطاهرة وما يحدث في الدول أو الأمبراطوريات الضخمة ، كان الأباطرة والأكاسرة لا رادّ لقضائهم ، ولا معقب لحكمهم ، سواء أجانبوا الصواب ، أم صادفوا وجه الحق ، وكانت حياة الفرد معلقة بمشيئة صاحب التاج والصولجان . . .

من هنا كانت حرية الفرد في رحاب العقيدة الإسلامية حرية مثالية ، ترتبط بكرامة الإنسان ، وحقه في الحياة الشريفة الكريمة ، حرية ملتزمة بأسس وقواعد ليست من صنع البشر ، ولكنها من صنع الله الذي أبدع كل شيء ، ولهذا كانت غضبة عمر بن الخطاب للحق غضبة مدوية حينما كتب لعمرو ابن العاص والي مصر يقول :

— «يا عمرو ... كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ..»

وهكذا نشأت حركة الفكر الاسلامي العريق في رواق تلك الحرية الحقيقية ، التي أصبحت ضرورة من ضرورات الحياة الإسلامية ، وسمة بارزة من سماة حضارتها الفذة ، ومن ثم نشطت حركة التأليف والتصنيف والإبداع والبحوث العلمية والترجمات من شتى اللغات ، فكانت علوم النحو والصرف والتاريخ والتفسير والحديث ، وكان التجديد في الشعر وفنون الأدب المختلفة ، وكانت الفتوحات العلمية الجبارة ، في الكيمياء والفيزياء والرياضيات والجغرافيا والفلك والنبــات والحيوان ، والفلسفات والمنطق ، فلا عجب أن نرى المؤرخين في عالمنا الحديث يقولون : إن ابن الهيثم عالم البصريات الأشهر يعتبر بحق من علماء العصر الحديث ، برغم أنه مات من قرون طويلة ، لأنه أتى في علم الضوء بنظريات ظلت سائدة حتى عصرنا ، كما يقول هؤلاء المؤرخون : إن البيروني عالم الرياضيات العبقري يعتبر واحداً من أكبر ثمانية عقول في العالم منذ التاريخ القديم للعالم حتى أيامنا هذه ، كما يعتبرون جابر بن حيان والإدريسي وابن بطوطة وابن سينا والزهراوي والفــارابي وغيرهم قمماً شامخة في عالم الفكر ، وإن نظرة واحدة إلى ما كان يغدقه الحكام والأمراء على النابهين من الشعراء والعلماء والمترجمين من

جوائز وعطايا ، ليعطينا فكرة واضحة عن احترام هؤلاء الحكام وللعلم والفكر ، وتقديرهم لحرية البحث والدرس ، بل إن المترجم كان ينال وزن ما ترجمه ذهباً ، وهذا مبلغ باهظ لا يستطيع المترجم في عصرنا أن ينال عُشره . . .

لم تكن حرية الفكر مجرد شعارات ترفع ، أو كلمات جوفاء يتشدق بها الناس ، وإنما كانت واقعياً حياً ملموساً ، وسلوكاً عملياً يراه الناس ويمارسونه ، ولم تكن الحريات مجرد نصوص في دساتير ومواثيق ، وإنما كانت تطبيقاً مؤثراً ، ودافعاً قوياً للإبداع والخلق . . .

هل كان غريباً بعد ذلك أن ينظر الغرب المتخلف آنذاك إلى الشرق نظرة إعجاب وتقدير وامتنان ؟ ؟ وأدرك الغرب المتخلف أنه لا يستطيع أن يقيم دعائم حياة كريمة إلاّ إذا استفاد من تراث الحضارة الإسلامية واستوعبها ، وحاول مواصلة السير على منهاجها ، ومن ثم أخذوا يتعلمون لغاتنا ، وينقلون علومنا وفنوننا ، فترجموا الطب والفيزياء والرياضيات والفلك وغير ذلك من العلوم الفلسفية . . . ولم يقف الأمر عند حد العلوم ، بل استفادوا من أساليبنا في الحياة ، ومن الموسيقى والشعر والغناء ، فنرى شاعراً كبيراً مثل « دانتي » في الكوميديا الإلهية ، يقتفي أثر شاعرنا الكبير أبي العلاء المعري في رسالة الغفران ، ونرى شعر الرعاة يقتفي آثار الشعر

الغنائي العربي ، ويعترف أحد كبار مؤرخي الغرب المحدثين فيعلن في كتابه الشهير « شمس الحضارة العربية تشرق على الغرب » ، بما قدمه المسلمون من معارف وعلوم وفنون كان لها أكبر الأثر في النهضة الأوروبية الحديثة . . .

تلك هي الصورة الحقيقية لحضارتنا التي أقامت بناءها الشامخ الخالد ، على دعائم ثابتة من حرية الفكر ، فأنجبت نخبة فريدة من عمالقة الرجال في شتى فروع المعرفة الإنسانية ...

عن الموضوعيّة والذاتيّة

كثيراً ما نسمع أن هذا الباحث أو ذاك رجل « موضوعي » أو أن تلك الدراسة التي تتناول قضية من القضايا دراسة موضوعية ونحن نشير بذلك إلى أنها دراسة جادة منصفة ، لا مجال فيها للتحيز أو الهوى الشخصي ، فالموضوعية إذن اصطلاح علمي يقصد به تناول الأمور ، وتحليلها بطريقة علمية محايدة ، لا تعرف الانحراف أو الكذب أو التمويه ، وهذا التناول يعتمد على ما يراه الإنسان ويلمسه فعلاً ، وعلى ما يجد من أدلة وبراهين قاطعة ، أو تجارب واضحة ثابتة الدلالة ، لا شك فيها ولا تردد ، فالباحث الذي يدرس ظاهرة من الظواهر الاقتصادية أو الاجتماعية أو النفسية بأسلوب علمي منهجي بحت ، هو باحث موضوعي ، والعالم الذي يجري تجربة كيماوية أو فيزيائية أو فسيولوجية ويسجل ما يشاهده ، ويستنتج الحقيقة مجردة هو عالم موضوعي ، والمؤرخ الذي يستقرىء أحداث التاريخ ، ويحقق الوقائع ، وتصرفات الأشخاص ، وظروف الزمان والمكان ، ثم يربط بين هذه العناصر كلها ربطاً محكماً واعياً ، وبعد ذلك يصل إلى تقييم دقيق لحقبة من

الحقبات ، أو عهد من العهود ، أو حادثة من الحوادث ، هذا المؤرخ يعتبر مؤرخاً موضوعياً ، فالموضوعية بهذا المفهوم صفة لازمة من صفات المنهج العلمي ، وبدونها لا يكون العلم علماً ، وعلى هذا الأساس نهج الغرب في بداية عصر النهضة ، وفي عصرنا الحديث ، وكان من نتائج اعتماد هذا الأسلوب والتقيد به ، أن تحققت الفتوحات العلمية الباهرة في مجالات العلوم المختلفة ، وتقدمت التكنولوجيا تقدماً رائعاً ، انعكس على حياة الناس الخاصة والعامة في كل أنحاء الأرض . . .

أما « الذاتية » فهي تكاد تكون على النقيض من الموضوعية. الذاتية هي الالتزام برغبات الإنسان الخاصة وعواطفه ومشاعره وميوله أو نزعاته الشخصية ، ومن هنا نرى الإنسان الذاتي الاتجاه ، يحاول أن يلوي عنق الحقيقة ، ويعتسف البرهان أو الدليل الذي يؤيد وجهة نظره سواء أكان على حق أم كان على باطل ، إن لديه قناعة خاصة بفكرة من الأفكار ، ويريد أن يقنع بها الآخرين ، ويحاول جاهداً أن يجعل منها مبدأ ، لا يحيد عنه ، ولهذا فإن الذاتية أبعد ما تكون عن العلم والمنهج العلمي التجريبي ، وعن البحوث الجادة الهادفة . . .

والذاتية قد تكون صفة من صفات الفنانين أو الشعراء والكتّاب ، لأن الفنان يحاول أن يعبر عن ذاته ، وأن يعكس على أعماله الفنية ما يعتمل في نفسه ، لأن الفن ينبعث من

الوجدان والعواطف والانفعالات . بينما تنطلق شرارة العلم من العقل . وإذا كان العالم موضوعياً بطبعه ، فإن الفنان هو الآخر ذاتي النزعة ، لكن ذاتية الفنان ليست ذاتية صرفة في الواقع ، ذلك لأنه يتأثر بما يقرأه من حقائق علمية ، وينفعل بما يتأكد له من ظواهر وتموجات وديناميكية في المجتمع والحياة ، ويهتز لما يشاهده من الاكتشافات الجديدة في عالم المادة ، ولهذا فإن انفعالاته وتصوراته وأفكاره ، وكل أموره الوجدانية قد تتأثر بذلك كله ، فينعكس بالتبعية على ذاته ، ومن هنا فإن نزعته الذاتية قد تكون متأثرة في الأصل باتجاهات وأساليب موضوعية تخضع لها بوعي أو بدون وعي ...

إن شعوب العالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة قد سادها أسلوب « الذاتية » لأحقاب طويلة ، وأهملت المنهج الموضوعي بقصد أو بغير قصد ، وكان هذا هو السبب الرئيسي فيما وقعت فيه من تخلف وتمزق وانهزامية ... هذا المنهج الموضوعي قد ألحق به ضرر بليغ لأسباب عدة ، منها الأهواء السياسية ، التي كانت في كثير من الأحيان تسخر كل النشاطات لمناصرتها والتمكين لها ، والمحافظة على مكاسبها ، وفي ظل هذا الهدف يحاولون إعادة كتابة التاريخ بطريقة تخدم أغراضهم وتؤيد وجهة نظرهم ، وتثبت دعائم حكمهم ، إنهم يعطون للحدث التاريخي المعين أسباباً جديدة ، ويحددون له أهدافاً لم تخطر للسابقين على بال ، ويقيمون الوقائع تقييماً يتفق

ومخططاتهم ومصالحهم وأهوائهم ، حتى يثبتوا للجميع أنهم يسيرون في طريق التطور الطبيعي الصحيح ، وأنهم يكملون الأماني والأهداف التي كافح من أجلها الآباء والأجداد ، حتى يكتسبوا بذلك صفة الشرعية ، ويؤكدوا صحة الأسلوب الذي يتخذونه لإنجاز ما وعدوا به ، وهكذا أحدثوا في التاريخ تشوهات غريبة ، واعتدوا على حرماته وقداسته ، وأوقعوا الأجيال الجديدة في متاهات وظلمات ، فاكتووا بنيران الحيرة والقلق والضياع .

وفعلوا نفس الشيء في مجال الاقتصاد والتشريع والعلوم الاجتماعية ، فتحولت ساحات البحوث والمؤسسات العلمية والجامعات والإعلام إلى مصانع للزيف والتمويه ، فأفلت الزمام ، وتبددت الجهود ، ولم نصل إلى النتائج المشرفة التي كنا نحلم بها ، ولم نحقق ما كنا نصبو إليه من آمال والكارثة الكبرى أن الصورة السياسية في بلدان العالم لا تكاد تستقر على حال ، فإذا ما حدث فيها تغيير أو تبديل ، انعكست الآية ، وأمست حقائق الأمس متهمة في أسلوبها ومنهجها ومنجزاتها ، وبدأ القادمون الجدد يعطون الإشارة للمفكرين والباحثين ، كي يختطوا أسلوباً آخر ، ويرسموا للتاريخ والاقتصاد والعلم دروباً مغايرة ، ثم يهيلون على الماضي القريب تراب النسيان والإهمال ، وهكذا تتكرر المأساة كل بضعة سنين .

ولولا أن هناك بعض العلوم التجريبية المستمرة كالطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات وغيرها ، لولا أن مثل هذه العلوم الراسخة قد تأبت عليهم ، واستعصت على عبثهم ، لنالها هي أيضاً ما نال العلوم الأخرى من تلفيق وتزوير ، ولكن الله سلم . . .

ولقد كان المنهج الإسلامي بطبيعته منهجاً عقلانياً ، يعرف التكوين الإنساني والوجود المحيط بنا معرفة صحيحة لا يتطرق إليها أدنى شك ، يعرف أشواق الإنسان والعوامل المتصارعة فيه ، ويدرك أبعاد العلاقات الخاصة والعامة ، ومن هنا كان التنظيم الإلهي لحياة الإنسان بكل نواحيها ، دون أن يغفل شاردة ولا واردة ، لقد أصبحت في ظل المفاهيم الإسلامية كل الأمور محددة واضحة ، دون أن تختلط بنزق الأهواء ، أو تشتبك بخرق النزوات ، لأنها صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة . . .

من هنا يجب أن تكون قناعتنا تامة بأن تصحيح المسار في عالمنا العربي والإسلامي ، لا يمكن أن يتم إلاّ بالعودة إلى المنهج الإلهي . . . المنهج الموضوعي ، الذي كان هو مفتاح سر نجاحنا في الماضي ، وكذلك كان وسيلة النهضة الغربية المعاصرة بعد أن نقلت ذلك المنهج عن علمائنا في تخصصاتهم المختلفة ، ولن ينجدنا من كبوتنا إلاّ هذا الأسلوب . . . أسلوب الموضوعية . . .

مع القصة التاريخية الحديثة

لم تكد تتأصل مفاهيم القصة الحديثة في أدبنا العربي المعاصر، حتى تنوعت ألوانها ، واتسعت أغراضها ، ونالت قدراً من الذيوع والانتشار ، وجذبت اهتمام الناقدين والدارسين ، وكان لما يسمى بالقصة التاريخية دور كبير على أيدي أعلام الأدب مثل طه حسين وعلي أحمد باكثير وسعيد العريان وفريد أبو حديد ونجيب محفوظ وغيرهم .

إن أحداث التاريخ مادة ثرية لأقلام الفنانين والأدباء في أي بلد من البلدان ، وخاصة البلدان النامية التي تخلع عنها نير العبودية والجمود والتخلف ، لأن الكتاب يحاولون أن يستلهموا تاريخهم ، ويجلوا عنه غبار النسيان حتى يقدموا لشعوبهم النماذج الرائدة ، كيما يرتبط حاضرهم بماضيهم ، فتتحدد ملامح شخصيتهم ، ويتسق انطلاقهم الحضاري في مساره الصحيح . . .

لهذا حاول أعلام المفكرين والشعراء والروائيين وكتاب القصة والمسرح أن يعبروا عن أمجادنا العربية والإسلامية، وأن

يقدموها في ثوبها الحقيقي الأخاذ ، بعيداً عن زيف المؤرخين المتحيزين ، وترهات المستشرقين المنحرفين ، وأن يؤكدوا أن ما ألمّ بهذه الأمةمن اندحار وتخلف واستغلال ، إنما هو عرض زائل لا يتمق ومبادئها وحضارتها الزاخرة بالقيم الأصيلة . . .

ولا ينكر منصف أن القصة التاريخية تنضوي تحت لواء ما ما يسمونه « بالواقعية » في الأدب ، فأحداث التاريخ واقع مسجل ، في عصر من العصور ، وفي بيئة من البيئات ، وهل التاريخ إلاّ مجموعة من التجارب البشرية كما يقول الدكتور محمد مندور في كتابه القيم « النقد ومذاهبه » ؟

وعند دراسة القصة التاريخية ، سواء في الآداب الغربية أو الشرقية ، نجدها تكاد تتخذ طريقين أساسيين :

الطريق الاول : أن يلتزم القاصّ أو الروائي بوقائع التاريخ الثابتة ، ولا أعني بذلك التزامه بكل ما جرى من أحداث ، وحشدها حشداً عشوائياً مملاً ، يضر بفنية القصة ، ويجعل منها أشبه ما تكون بسجل تاريخي أو كتاب تاريخ ، وإنما يرجع الأمر أولاً وأخيراً إلى حسن اختيار القاص للأحداث ، وانتقاء ما يراه ضرورياً لفكرته وفنه ، دون الإخلال بالقواعد الفنية المتعارف عليها في فن القصة الحديثة . وأخطر ما يتهدد هذا اللون من القصص هو الأسلوب التقريري . والنغمة الخطابية العالية الرنين ، الأسلوب التقريري ينال من

فنية القصة ، ويهبط بمستواها ، إذ المعروف بداهة أن القاص يعبر بالحدث . . . أو بالوقائع تعبيراً غير مباشر ، ورب كلمة عابرة ، أو لمحة صغيرة ، أو تصرفاً بسيطاً من تصرفات أحد الشخصيات ، أو حواراً موجزاً بين شخصيتين ، ربما يستطيع شيء من هذا كله ، أن يؤدي ما لا تؤديه عشرات الصفحات التقريرية من إيحاء وتعبير عن الجو التاريخي بشتّى نواحيه . . .

والنغمة الخطابية هي الأخرى لا تقل خطراً عن الأسلوب التقريري ، إذ يشعر القارىء بأن المؤلف يتدخل بصورة مزعجة من خلال الأشخاص والمواقف ، ومن ثم يصبح حاجزاً يعترض استساغة العمل الفني ، والاستمتاع به ، وهنا نرى أن الموضوعية قد تعتبر ضرورة بالنسبة لهذا اللون من القصص التاريخي .

أما **الطريق الثاني**: الذي انتهجته القصة التاريخية ، فقد عبر عنه أحد النقاد الغربيين بقوله : « ما التاريخ إلاّ مشجب أعلق عليه لوحاتي » ، وواضح أن الناقد الغربي يتخذ التاريخ واحداثه تكأة ليعبر من خلالها عما يعتمل في نفسه هو . . . انه يعرض آراءه وفلسفته من خلال قصة او مسرحية تاريخية ، أو عن طريق إعادة الصياغة لأسطورة من الأساطير ، كما فعل توفيق الحكيم في « أوديب ملكاً » وفي « السلطان الحائر » أو كما فعل ألبير كامي في مسرحية « كاليجولا » ، وجان بول سارتر في « الندم » ، ونجيب محفوظ في « رادوبيس » ،

وعلي أحمد باكثير في « إيزيس وأوزوريس » وغيرهم كثيرون .

وقد يتناول عدد من الأدباء حادثة تاريخية واحدة ، أو أسطورة معينة ، بحيث يتناولها كل واحد من زاوية خاصة تختلف عن معالجة الكاتب الآخر ، وفي العادة يكون تناولهم لها تناولاً إنسانياً عاماً ، بحيث يركز على قضية من القضايا التي تهم البشر جميعاً . . . كمشكلة الحرية . . . أو العدالة . . . أو الاختيار . . . أو مشكلة العقيدة الإلهية . . . أو مشكلة السلم والحرب . . . ولا شك أن مثل هذه المعالجات الفنية ، برغم إهمالها تثير من الجوانب التاريخية ، واعتمادها أساساً على الحدث الأكبر ، إلا أنها أكثر عمقاً ، وأخلد أثراً ، من تلك القصص أو المسرحيات التي تحتفل أيما احتفال بالحدث التاريخ ككل . . .

* * *

في هذين الطريقين سار أدباء العربية المحدثون ، وإن كانت الغالبية العظمى منهم تشبثت بالنوع الأول من القصص التاريخي لاعتبارات قومية ووطنية وعقائدية ، وبسبب الظروف السياسية والتاريخية التي نمر بها ، والتي تحتاج إلى إذكاء الشعور الوطني ، وتنمية لمشاعر البطولة ، مشاعر التضحية والصبر والفداء ، لتحقيق القفزات التي لا بد منها كي نقطع المسافة

الشاسعة من التخلف ، تلك التي تفصل بيننا وبين الدول المتقدمة . . .

وكان لا بد لنا أن نتعرض – في هذه العجالة – لما ألفه جورجي زيدان تحت اسم « روايات تاريخ الإسلام » ، هذا المؤلف يحرص دائماً على أن يضع ثبتاً للمراجع التاريخية في أول كل رواية من رواياته ، كما أنه يحشد الكثير من الأحداث التاريخية بطريقة تبدو مخلة في كثير من الأحيان ، ولكي يخفف من كثافة هذه الأحداث نراه يركز على العلاقات العاطفية ، ومغامرات الجواسيس والجواري والعبيد ، ومع ذلك فهو كثيراً ما يلجأ إلى الروايات الضعيفة ، ويغفل « الدقة التاريخية » سهواً أو قصداً ، فنراه ينسب الانتصارات الضخمة لجيوش المسلمين ، في بعض الأحيان ، إلى محض الصدفة ، أو لمكيدة تافهة من المكائد ، أو لعلاقة حب بين قائد مسلم وامرأة مسيحية من الأعداء ، وهذه كلها سقطات فاحشة يكمن وراءها سوء النية ، لأن انتصارات المسلمين كانت نابعة أساساً من قوة العقيدة التي يؤمنون بها ، ومن روعة المبادىء الرائعة التي يبشرون بها ، وينفذونها قولاً وعملاً . . . لم يستطع جورجي زيدان أن يبرز السمات الحضارية لحركة الزحف الإسلامي الشريف . . . ومن ثم فإننا ندين بشدة هذا الفن الزائف المغرض ، ونحذر من تداوله كل ذي ضمير حي . . .

أما الكاتب الكبير علي أحمد باكثير رحمه الله ، فقد قدم أنموذجاً جميلاً في روايتيه « وا إسلاماه » و « سيرة شجاع » .

ونرى أديباً آخر مثل محمدفريدأبوحديد يتخذطريقاً وسطاً بين الطريقين سالفي الذكر في رواياته « زنوبيا » و « المهلهل » و « جحا في جانبولاد » و « الوعاء المرمري » ، وكذلك المرحوم الشاعر علي الجارم في رواياته « غادة رشيد » و « هاتف من الأندلس » و « الشاعر الطموح » ، ومثلهما فعل سعيد العريان .

ونرى الدكتور طه حسين في روايته « الوعد الحق » — وفي كتابه « على هامش السيرة » أيضاً ، ينحو منحى يقترب به من النوع الأول ، بأسلوب أدبي شائق ، يتميز بالشفافية والرقة والعمق والجمال ، وكأنك أمام لوحات فنية ذات بهاء ونقاء ، والواقع أن كتابات طه حسين تلك ، تعتبر بحق فريدة في بابها ، فهي تمزج بين الشعر والقصة ، والأدب والتاريخ ، إنها إنتاج مميز لا يمكننا أن نعتسف له القواعد القصصية المتعارف عليها . . .

لكن توفيق الحكيم من أنصار الطريق الثاني ، فالتاريخ عنده مجرد مشجب يعلق عليه لوحاته ، ومن ثم يبث في عمله المسرحي آراءه وأفكاره في ظل فلسفته ، متناولاً القضايا

الإنسانية العامة . ولعل هذا هو السبب الرئيسي في إقبال دور النشر الأجنبية على ترجمة آثاره .

ولا شك أن تاريخنا عامر بالأحداث والشخصيات العظيمة، وأن مادته الأصيلة ، جديرة بأن تجتذب الأقلام الشريفة المتمرسة ، تلك التي تعرف كيف تعبر تعبيراً فنياً جميلاً عن أعظم حضارة عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل . . .

نحن والتيارات الفلسفية المعاصرة

قد يظن البعض أننا سنخوض في أعماق الفلسفة كعلم ، ومن ثم نغرق أنفسنا في متاهات المصطلحات الفلسفية المعقدة ، وقضاياها وتعريفاتها العويصة ، ودروبها المكتظة بالوعورة والعقبات والإبهام ، لكننا لا نهدف إلى ذلك الآن ، وإنما نريد أن نلقي الأضواء على الاتجاهات الفكرية المتضاربة في مجالاتها التطبيقية ، دون أن نزج بأنفسنا في هذه الأمور العلمية العويصة ، ثم نخلص من ذلك كله إلى الإجابة على سؤال هام في آخر كلامنا : « ترى إلى أي اتجاه تكون مسيرتنا ؟ ؟ »

إن عالم اليوم يغص بالعديد من المذاهب الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية . بعضها ينحرف إلى « الفردية » المطلقة ، حيث تكون مصلحة الفرد فوق كل اعتبار ، وحيث تتاح الفرصة كاملة لنشاطاته ، فيعطى الحرية التامة ليكتب ويتاجر ويسلك السلوك الذي يرتضيه ، دون أي نظر لقيم أخلاقية ، أو أعراف دينية ، وفي خضم هذا المفهوم أو تلك الفلسفات الفردية ، احتدم التنافس الحاد في أروقة السياسة

والاقتصاد. واستعملت الإغراءات المادية . والضغوط النفسية ، في اكتساب مراكز للسلطة . وتكوين مراكز قوى ، وتحكمت الفئات القادرة مادياً في مصائر الناس . واستطاعت أن توجه سفينة الحياة الاجتماعية الوجهة المناسبة لها والتي تحمي مراكز قوتها ونفوذها . وتحافظ لها على إمكانياتها المادية الهائلة . ومن ثم أصبح الإعلام والفن والفكر تابعاً لها . ودارت في فلكها الصحافة بأنواعهـا المختلفة . وكـذلك الإذاعات والتلفزيونات ، وتحت هذه المظلة المستحكمة . نبتت تيارات السخط والرفض واللاانتماء واللامعقول . وانجرف اليائسون والساخطون والمتمردون في مشاعر الانطواء تارة . والأنانية تارة أخرى . وانتشرت مباءات المخدرات . وحبوب الهلوسة والمعتقدات الروحية الشاذة . والأفكار الغريبة ، وأصـاب الأسرة في هـذه الأثناء الكثير من التحلل والتمزق الانحراف ، حتى ولو كانت هذه المجتمعات تنعم بالرخاء المادي ، والمستوى الاقتصادي المرتفع . والاستفادة من منجزات التكنولوجيا الحديثة ، وما تجود به من رفاهية ومظاهر جذابة . .

الصورة تبدو واضحة جلية في المجتمعات الأوربية والأمريكية ، وعلماء النفس والاجتماع يقدمون الدراسة تلو الدراسة مؤكدين الخلل الذي أصاب شعوبهم ، وأضر أبلغ الضرر بأفكارهم وسلوكهم ووجداناتهم ، ويطلبون من علماء التربية ، أن يبحثوا عن أساليب جديدة ، كي يرسوا على

أساسها دعائم فلسفة مناسبة للتربية والتعليم . ويشيرون في نفس الوقت بأصابع الاتهام إلى النظم الأسرية الفاسدة . والفلسفات المريضة الآثمة كالوجودية وغيرها . ويضعون في عنقها إثم التأثير المسموم فيما دهم الجيل الجديد بالذات من توتر وانحرافات وضياع . . .

إن الوجودية مثلاً تقول لهم افعلوا ما شئتم بشرط أن تتحملوا المسئولية كاملة . . . إنهم يسمون ذلك « موقف الاختيار الوجودي » . . . لكن أي اختيار ذلك ؟ ؟ إنهم يلقون بالإنسان في تيه صاخب العواصف . ضائع المعالم . شديد الظلمات . ويقولون له تخير طريقك . . . إنهم لم يحددوا شيئاً، ولم يرسموا درباً يسير عليه الناس في وضوح وثقة وعلى هدى وبصيرة ، لقد تركوا له حرية التصرف الكاملة . . . للجميع . . . صغاراً وكباراً ، رجالاً ونساء . جهلاء ومثقفين . . . ومع هذا الغموض والحيرة المعذبة في « الموقف الوجودي » نراهم يضعون على كاهل ضحاياهم المسئولية كاملة . . . افعل ما بدا لك ، لكنك مسئول ، مسئول أمام نفسه المعذبة القلقة ، ومسئول أمام القوانين التي تحكم دولته وهو لا يحترمها . ومسئول أمام المجتمع المتفسخ المتضارب الأهواء. . . لكنه — وهذا هو زعمهم المسرف الخطأ — غير مسئول أمام الله ، لأنهم كافرون بالله وبالمثل العليا التي أنزلت في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه ورسله . . . إن الوجودية ، وهي

تمثل الاتجاه الفردي في الفلسفة المعاصرة . قد لعبت دوراً هداماً مدمراً في المجتمعات الأوربية والأمريكية . وهي « الأم » لكثير من حركات الشطط والفساد والتحلل التي اجتاحت العالم الغربي في العقود الأخيرة من هذا القرن التعس ...
وفي مواجهة « موقف الاختيار الوجودي » نقدم موقف « الاختيار الإسلامي » ... نعم ... موقف الاختيار الإسلامي الذي حدد للإنسان كل شيء طريقين لا ثالث لهما : طريق الخير وطريق الشر . طريق النور وطريق الظلام . طريق الهداية وطريق الغواية . « وهديناه النجدين » .

الاختيار الإسلامي هنا . اختيار محدد لا لبس فيه ولا غموض . ولا اضطراب ولا حيرة . وكل واحد منهما له أسبابه ومواصفاته وآثاره الإيجابية والسلبية ، الاختيار الإسلامي عملية سهلة لا تهدم كيان الإنسان ، ولا تمزق روحه . ثم هناك المسئولية على هذا الأساس الواضح ، والحساب أمام الله العادل الرحمن الرحيم الذي لا تخفى عليه شاردة ولا واردة ، وينبوع القول والعمل يتدفق من قلب المؤمن الذي عرف ربه . وعرف الطريق إليه . وعرف أيضاً أن الناس إخوة ، وأن الأنانية أو الفردية . وكذلك التحلل والانحراف والشطط . مما ينال من قدر الإنسان . ورسالته الطاهرة المقدسة في الحياة الدنيا ...

تلك هي شجرة الفلسفات الفردية وما تولد عنها من

اتجاهات معتلة مريضة . ساهمت في غرس التعاسة والشقاء في قلب الإنسان ، وبالطبع فإن الفردية نقيض للمصلحة الاجتماعية .

أما الاتجاه الثاني في الفلسفات المعاصرة ، ذلك الاتجاه الذي ساد مساحات شاسعة من الأرض ، فهو اتجاه الفلاسفة الجماعية ، إنه الاتجاه الذي زرع بذوره ماركس ومن أتى بعده ، هم يؤمنون أن مصلحة المجتمع فوق مصلحة الفرد . وأنه لا بأس أن يضحى بمصلحة الفرد أو بحياته ما دامت أفكاره وتصرفاته تتصادم مع المجموع ، هذا الجنوح اليساري استباح لنفسه أن يبيد ملايين الأفراد باسم المصلحة العامة ومارس شتى ألوان العسف والاضطهاد . وخنق الحريات الأساسية للإنسان ، باسم سيطرة البروليتاريا صاحبة الحق الأول في خيرات المجتمع ، لأنها هي التي تقدم عرقها وجهدها ، وهي التي تقيم بناء التقدم والحضارة والرخاء، هذا الشطط الغريب أحال شعوب تلك البلاد إلى نزلاء في سجن كبير ، أطلقوا عليه اسم الستار الحديدي . ولو كانوا صادقين فيما قالوه عن الكادحين . لما ساقوهم كما تساق الأنعام . ولما أداروهم في رحى أفكارهم أو فرضوا عليهم الأساليب الوحشية التعسفية حيث القهر والارغام والإرهاب . . . إن سحق الفرد من أجل المجتمع وهم كبير . وخطأ أكبر ، فماذا يكون المجتمع ، إنه مجموع الأفراد . وتعاسة الفرد سوف تؤدي بالضرورة إلى تعاسة

المجتمع ، والتضحية بحياة ملايين من البشر من أجل المجتمع خدعة ضخمة ، فلو أن الأمر اقتصر على واحد أو مائة أو ألف ، لكان الأمر أهون . أما أن يكتسح طوفان الحقد الطبقي تحت ستار العقيدة ، فهو الشيء الذي ليس له مثيل في التاريخ ، فليس بالخبز وحده يحيى الإنسان . فالإنسان في حاجة إلى الخبز والحب والحرية والإخاء . وفي حاجة إلى الإيمان واليقين ، فالعدالة الحقيقية السمحة إذا ما سادت — دون إراقة دماء أو اضطهاد — استطاع كل فرد أن ينال حقوقه المشروعة ، وأن يجد الفرصة الحلال للرزق والعمل والوضع اللائق بكفاءته وموهبته . . . ومهما طال الزمن فإن هذه الفلسفات الجائرة المتحيفة لا بد وأن تتفجر يوماً بسبب عاصفة اجتماعية ، أو شطط سياسي . أو كارثة اقتصادية ، فالبقاء للأصلح دائماً ، وليست ظاهرة المفكرين والعلماء والدبلوماسيين من وراء الستار الحديدي . ليس هروب هؤلاء جميعاً ولجوؤهم إلى دول أخرى . بالشيء الذي يمكن تجاهله ، بل إن المطاردات والتصفيات الجسدية للمخالفين في الرأي تعتبر من أحط الأخلاقيات التي تسيء إلى كرامة الإنسان وشرفه . . . والآن ، كيف نتخذ نحن لأنفسنا مساراً بين الفلسفات الفردية والفلسفات الجماعية ، بكل مدارسها وتفرعاتها ؟ ؟ لنقرأ معاً قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنعام :

« وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

إن النظام الإلهي البديع ، قد جمع بين مصلحة الفرد والمجموع في صعيد واحد . فمن ناحية أخرى كرم الإنسان (ولقد كرمنا بني آدم) . وشرع له الحقوق المقدسة ، والواجبات المنوطة به ، وربط توازن المجتمع بالتوازن النفسي لدى الفرد ، ووضع التشريعات التي تتناول حياة المؤمن في علاقاته الأسرية والاجتماعية ، وفي دوره الشريف تحت اواء الأخوة الإنسانية . أخوة الحاكم والمحكوم . والغني والفقير . والأبيض والأسود ، وفرض حقوقاً على الأغنياء والفقراء . فكان ذلك النسق المعجز الذي أخرج خير أمة للناس ، تمضي على هدى وبصيرة ، في حربها وسلامها . وفي فقرها وغناها ، وأوصانا باتباع هذا المنهج — وهو خالقنا — لكي نسعد جميعاً في ظل المعاني الإنسانية الخالدة . عبر الأجيال والأزمنة . . .

فلسفة إقبال

« كان إقبال رفيقي ودليلي » .

هكذا تحدث القائد محمد علي جناح . منشىء دولة باكستان . عن الفيلسوف الشاعر . عملاق الفكر الإنساني الإسلامي في القرن العشرين الدكتور محمد إقبال . والفنان العظيم هو الذي يستطيع أن يكون رفيق السفر ، وفي الوقت نفسه الدليل العبقري الذي يعرف الطريق إلى الهدف . فيقود خطاك إلى المجد والنصر . ويعرف الزاد الضروري للمجاهدين . والوقود المناسب لإشعال طاقة البعث الكبير . ومن ثم فإن فلسفة إقبال . ويمكننا أن نقول أن فلسفة إقبال هي فلسفة الواقعية المثالية . . . نعم . وليس في هذا تناقض . لأنها فلسفة تنبع من ضمير الأمة ويقينها . وتستمد أصولها من عقيدة التوحيد . وتشرئب بعنقها إلى أشرف مقصد . وأكرم غاية . . .

فلسفة إقبال إذن فلسفة مثالية لعظمتها وعصمتها وتفردها وشموخها وقوتها . وارتباطها بالغد الأفضل . على الصورة

المثالية التي يحلم بها أولو العزائم والهمم . وهي أيضاً فلسفة واقعية لأنها الدواء الحاسم لأدواء الأمة الموحِّدة . التي أزمنت أحزانها وآلامها وعسرها . وتكالب عليها الأعداء الطامعون من كل حدب وصوب . وبالنظر لفلسفة إقبال — فلسفة « خودي » — وهي كلمة فارسية معناها الذات . نرى أن هذه الفلسفة تؤمن بالذات المتفردة . . . الذات القوية المؤمنة الواعية . ولا يتبادر إلى الذهن أنها الذات المنطوية على نفسها ، أو التي تطل من برج عاجي . وتتعالى بالأنانية والمروق والجشع . على غرار الفلسفة الفردية في أمم الغرب . بل إن هذه الذات تعيش في المجتمع الكبير . وتتفاعل معه في أخوة وحب ورباط وثيق ، هي ابنة أصيلة متميزة في بناء المجتمع الكبير المتماسك ، هي جزء من كل . بحيث لا يطغى الكل على تميزها وتفردها ، أو يسحق أشواقها وأفراحها . أو يذيب أحلامها وقوتها وتحررها ، وبحيث لا تتقوقع هي الأخرى على نفسها ، يأكلها الحور أو العزلة المميتة ، يقول إقبال عن أنموذج فلسفته ما ترجمته :

هو في المجمـــــع خالٍ
ومـــن الحشد طليـــقُ

مثل شمع الحفل . . في الحفل
وحيـــــــــد ورفيـــقُ

وإذا حاولنا أن نعرف ما تعنيه الذات في فلسفة إقبال نجد أنها « حالة من الجهاد المتصل ، والتوتر النفسي الإيجابي ، والكفاح المستمر » . وأما القبيح المرذول، هو كل ما يطفىء في الذات شعلة الحماسة ، أو يخمد فيها ثورة التوثب للنضال والسمو ، وكل ما يقوي الذات وينميها ويدفعها إلى الأمام ، ويحفظ عليها حالة التوتر تلك فهو محبوب وجميل ، ولذا يقول إقبال :

« إن الذات تقوى بتوليد المقاصد ، وإيجاد الرغبات . وخلق الأماني » . وهذا على النقيض تماماً من فلسفة شوبنهاور المتشائمة . تلك التي ترى أن الحياة نهايتها الموت ، وأنها طمع وجشع ، والإنسان التعس لا تقف آماله عند حد ، إنه جائع دائماً ، ظامىء دائماً ، يتوق إلى المجد والتسلط والسيطرة ، ثم يصرعه الموت ، وهو ضائع بين الحسرات والغرور والفشل والوهم ، هكذا يظن شوبنهاور ، أما إقبال فيهتف في يقين :

« غص في البحر ، وحارب الأمواج ، فإن خلود الحياة في الكفاح » .

إن صانت الذات القوية نفسها
أعيت على الأيام كل مماتِ

ويقول في قصيدة أخرى :

وإذا كان للخلائق ناموس يرينا الصباحَ بعد المســـاءِ
فكذا تذهب الحياة ولكن
بعد ليل الحمام صبح البقاءِ

ويعتقد إقبال أن الذات تصقلها طاعة الله . وأن الطاعة مرتبطة بفضيلة العشق ، والعشق معناه تفرد المحب والمحبوب في مهرجان الأشواق القدسية ، وحب الله ثم حب الرسول هو الحب الكبير الذي تترعرع في جنباته الفضائل . والمحب لمن يحب مطيع ، ومن هنا كان ارتباط الطاعة بالحب ، وحفظ الذات من الزلل ، وتربيتها في ظل المعاني الإلهية الخالدة ، يقول الأستاذ أبو النصر الهندي : « إن العشق في مفهومه المطلق ، هو الشيء الذي يقوي الذات وينميها ، ويدفعها إلى الكمال الخالد ، والعشق معناه جذبك الشيء أو طلبك إياه ، لتجعله جزءً من نفسك ، وأسمى صور هذا العشق وأغلاها وأعظمها هو توليد المقاصد » . فالعشق إذن يقوي الذات ، والاستجداء والسؤال يضعفها :

« كل من يكون متاعه عشق المصطفى ، يكون البر والبحر في طرف ذيله » فإذا ما مرت الذات بمراحل النمو المختلفة ، وأعني بها توليد الرّغبات ، والكفاح الدائب الصبور ، والطاعة لاوامر الله ، وضبط النفس ، والخلاص من نزواتها القاتلة ، تأتي المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة المؤمن الحقيقي

الذي يقابل ما يسميه الفلاسفة الغربيون « بالسوبرمان »، وهو يختلف عنه بالطبع ، والمؤمن الكامل أو الحقيقي هو صاحب الإرادة والاختيار ، يغلب الدنيا ولا تغلبه ، ويقهر الوجود ولا يقهره ، ولا يهاب الموت ، بل يبتسم له في شجاعة ، ويعتبره البرزخ إلى عالم الخلود الأبدي :

« يا عبدي أطعني تكن ربانياً ، تقول للشيء كن فيكون »

ذلك هو المؤمن الكامل أو الإنسان الرباني ، يملك الدنيا ولكنها لا تملكه ، ولا تستعبده أو تستهويه ، فهو مع ملكيته للدنيا ، حر طليق من قيودها ، وهو ما يعبر عنه إقبال بالفقير . . . أو « القلندر » وهي كلمة فارسية معناها « الدرويش » ، ذلك القلندر هو السلطان ، في حوزته الكثير ، لكنه في غنىً عنه . . . لذا يقول إقبال :

« أنت يد قدرة الله أيها المسلم
فهيا اخلق يقين الهمة
ولا تعش أسير الأوهام
إن الدنيا تفنى ، ولكنك أعظم خلوداً من الدنيا . . .
وأنت رسالة الله الأخيرة إلى الأرض
لذلك فأنت موصول الدوام (من الدنيا إلى الآخرة)

هذه هي مقاصد الفطرة ، ورمز الإسلام الحقيقي :

أن تملك العالم بالأخوة ، وتحكمه بالمحبة

ما الذي محا استبداد قيصر ، وشدة كسرى ؟

أكانت هناك في العالم قوة تحارب الجبابرة سوى قوة
« علي » وفقر « أبي ذر » وصدق « سلمان » ؟ ؟

ونظرة إقبال إلى الفن عموماً ، تنطلق من واقع فلسفته ، فهو يرى ان الفن الحقيقي ليس في التقليد والمحاكاة،وعلى الفنان الحقيقي أن يسبغ ذاته على الطبيعة ، وأن النفس الضعيفة الواهنة الخائفة لا تنتج فناً صادقاً أصيلاً ، وأن رسالة الفن تنبع من قدرته على السمو بالنفس ، وتوليد المقاصد والغايات ، ويدعو إقبال إلى التجديد والإبداع والحرية والصدق والشجاعة ، ويهاجم أولئك الفنانين الخائفين الذين يسيرون في فلك القديم ، ويخونون رسالة المؤمن الحق ، ويشبههم بالسامري الذي صنع عجلاً جسداً له خوار لبني إسرائيل ليعبدوه ، ويشبههم بالسحاب العقيم الذي لا ينطلق منه برق قديم أو جديد ، وليس فيه سوى الجدب والفقر والموت . . . يقول إقبال ما ترجمته :

جزعت فلا أرجّى في أناس
لهم فن كفـــن السّامـــريّ

سقاة في ربوع الشرق طافوا
على الندماءِ بـــالكأس الخليِّ

سحاب ما حوى برقاً قديمـــاً
وليس لديه من برق فـــتيِّ

ولقد استطاع إقبال، أن يهضم الفلسفات المعاصرة كلها، ويمضي في أنحاء أوربا وآسيا وغيرهما متفحصاً مفكراً، والتقى بكبار زعماء العالم وفلاسفته وشعرائه. ودمغ الحضارة الأوربية التي كفرت وانحرفت. وعندما التقى بموسيليني قال له موسوليني:

— «إن ملك الحديد ملك كل شيء».

فرد إقبال على الفور قائلاً من وحي فلسفته:

— «من كان حديداً فقد ملك كل شيء».

وكان إقبال رحمه الله، يتغنى بالعرب وأمجادهم وبحملهم رسالة محمد (ص) إلى كل الأنحاء، وبجهادهم الرائع. ويقول إذا كنت أعجمي الهيئة والنشأة والجسم، فإن روحي وقلبي ومبادئي من تلك الحياة الروحية والفكرية الخالدة التي أتى بها النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم يقول ذلك شعراً:

أنـــا أعجمي الدن لكن خمرتي

صنع الحجاز وكرمها الفينان

ويقول عن صوته : إن ذاك الصوت من « عدنان » .

إن إقبال — بحق — رائد من رواد الفكر العالمي في القرن العشرين . فهل نبحث عن آثاره ، ونحاول ترجمتهـــا حتى تعرف أجيالنا الجديدة الطريق الصحيح لمسيرتها الدائبة من أجل التقدم والتحرر والنجاة ؟ ؟

أرجو ذلك .

حركة الترجمة إلى العربية

ما من شك في أن ترجمة التراث العالمي إلى العربية ، قد كان لها الفضل الأول في نقل الفكر العالمي الحديث ، ومنجزاته العلمية العظيمة ، والتعرف على سمات الحضارة الأوربية المعاصرة ، والمؤثرات السياسية والاقتصادية التي تركت بصماتها على أحداث التاريخ ، وساهمت في تغيير مساراته في الشرق أو الغرب ؛ عن طريق الترجمة إذن دخلنا إلى عصر جديد من العلم والمعرفة ، وارتبطت ثقافتنا العامة بالتيارات العالمية ، ومن ثم لم نتقوقع أو ننعزل عن العالم وأحداثه وتحولاته الصناعية والاجتماعية الضخمة .

من هنا كانت أهمية الترجمة ، وضرورة تشجيعها . وتوجيهها الوجهة الصحيحة ، حتى تؤدي كامل أغراضها . وليس هذا أمراً مختلفاً عليه ، ولكنه بديهية من البديهيات التي لا يماري فيها أحد . . . وفي تاريخنا العربي القديم تنبه كامل ووعي حقيقي بقيمة الترجمة وأثرها ، ولذا رحب الحكام والأمراء بترجمات الآثار الفارسية والهندية واليونانية والسريانية والعبرية وغيرها ، وأجزلوا العطاء للمترجمين .

في أي فرع من فروع العلم والفكر والفلسفة ، واستطاع فلاسفتنا وعلماؤنا أن يستفيدوا من تلك الحركة النشطة في الترجمة وأن يجدوا أسساً جديدة للمنطق والتفكير ، كما أمكنهم أن يضيفوا ويبتكروا أموراً جديدة ؛ كان لها أكبر الفضل في تطوير العلوم والمعارف الإنسانية ، كما استطاعت الحضارة الإسلامية أن ترسم طريقها الأصيل ، عن وعي وفهم ،وعن إدراك شامل لكل ما يحيط بها من نهضات وفلسفات وتاريخ وأفكار ، كما أمكنها أن توصل قيمها ومبادئها في أية أرض ، وأن تسمو إلى آفاق عالية من الإبداع والتطور ، حتى انقادت لها أمم الأرض ، وأصبحت لها السيادة والريادة ، بما أوتيت من إمكانيات حضارية ، وتفوق علمي وثقافي . . .

ومع كثرة الاتصالات العالمية اليوم ، ودخول اللغة العربية عدداً من المنظمات الدولية كلغة أساسية ، ثم اعتماد أجهزة الإعلام الحديثة على الترجمة في مجالات الأخبار ، مع كل ذلك فإن حركة الترجمة اليوم . تعاني من تخبطات واضطرابات خطيرة . لا بد من التنبه لها ، وإلاّ تخلف الركب ، ولم نستطع أن نواكب الحركة العالمية الزاحفة بسرعة رهيبة إلى الأمام . . .

ويمكننا أن نقول أن ترجمة العلوم المرتبطة بالتكنولوجيا هي الأخرى تمضي في طريقها حسب الضرورة ، وإن كانت بصورة أقل من المطلوب ، لكن الذي نعاني منه فعلاً هو

ترجمة عيون الآداب والفنون والفلسفة المعاصرة ، والترجمات التي نراها اليوم للأسف ترجمات تجارية تقع في أخطاء جسيمة نستطيع أن نوجزها كالآتي :

أولاً — **الاختيار** : إن مترجمي القصص والمسرح وغيرهما يتأثرون في اختيارهم بالعائد المادي ، ومن ثم يختارون الآثار السوقية التافهة . التي تبعث على الإثارة ، وتهتم بالجنس ، لأن عائدها أكبر ، وترجمتها أسهل . وهم يقدمونها بأسلوب ركيك . ويهملون في ترجمتهم المواصفات والقواعد الأساسية للغة العربية . فنراها مليئة بالأخطاء . وبالتراكيب اللغوية السقيمة .

ثانياً — **المترجم** : إن المترجم الأصيل ، يجب أن يكون على إلمام كامل باللغة العربية ، وأيضاً باللغة التي ينقل عنها . لكن هذا الشرط غير متوفر في معظم المترجمين ، ولهذا نرى الكثيرين منهم يقعون في أخطاء بشعة لعدم فهمهم العميق للغة التي يترجمونها ، أو بسبب فشلهم في بناء العبارة العربية السليمة أو للسببين معاً ، والغريب أن ساحة الترجمة أصبحت كلأً مباحاً لكل من هب ودب ، وكان المفروض أن يعطى ترخيصاً بالترجمة لكل قادر ، بعد إجراءات معينة أو اختبارات خاصة . حفاظاً على التراث المنقول ، وحفاظاً على مستوى اللغة العربية التي تنقل إلينا أفكار الآخرين ، بل ومن الضروري

أيضاً ، أن تعرض المواد المترجمة على مراجعين متخصصين ، ولا تترك هكذا دون ضابط أو رابط ، وأمر آخر وهو أن المترجم يجب أن يكون واسع الاطلاع في اللغة التي ينقل عنها ، فهناك أسماء وأحداث شائعة في بعض الدول ، ولكننا لا نعرف عنها الكثير في بلادنا ، ووظيفة المترجم الأصيل أن يزود كتابه بشروحات أو تعريفات هامشية تفيد القارىء ، وتوضح ما غمض من أسماء وأحداث ، ولن يتأتى ذلك لمن يترجمون بسرعة ترجمة حرفية ركيكة ، وكثيراً ما يخطئون أخطاء فاحشة عند ترجمة بعض الكلمات ، ويعتمدون على القواميس اعتماداً كلياً ، غير مدركين أن المعنى القاموسي ، قد يختلف كثيراً عن المعنى المتداول ، أو المعنى الذي يرتبط بتركيب معين في جملة معينة . . . ولهذا نقول يجب أن تكون الترجمة من اختصاص فئة معينة من المتخصصين المؤهلين لذلك ، وأن يُعطوا من الجهات المسئولة تصريحاً بذلك . . .

ثالثاً — **الترجمة الموجهة** : ونحن لسنا ضد الترجمة الموجهة في حالة الضرورة ، كأن تشجع الدولة أو المؤسسات العلمية والفكرية ألواناً بعينها تراها ضرورية لإنعاش النهضة الفكرية والعلمية ، أو لسد نقص بذاته ، لكن المشكلة العويصة أن الترجمة الموجهة سلاح ذو حدين ، فقد يكون للظروف السياسية السائدة تأثير في اختيار ما يترجم من هذه الدولة أو تلك استجابة للعلاقات الدولية أو السياسية القائمة بين البلدين ،

عندئذ تُسد أبواب بكاملها ، وتُفتح أبواب أخرى على مصراعيها ، وهكذا يرغم الناس على فكر معين مستورد . أو ثقافة لها لون خاص ، ومعروف أن الصراعات الدولية . تجر وراءها عداءات وخصومات ثقافية وفكرية . ونحن في مثل تلك الظروف نتحيز لاتجاه ما ، ونهمل غيره من الاتجاهات ، فتأتي حصيلتنا الثقافية شوهاء مبتورة ، ونعيش في حصار وجهة النظر الواحدة . ونكون كالمصاب بعمى الألوان ، نرى بعضها ، ولا نستطيع أن نستدل على أنواعها ... وعمى الألوان مرض من الأمراض . يعوق صاحبه عن الانتماء لأعمال بعينها تقتضي سلامة البصر ، وإلاّ حدثت الكوارث . . . والرأي الذي أميل إليه ، هو أن تشكل هيئة محايدة للترجمة . تكون لها الحصانة ومطلق الصلاحية ، في تسيير دفة الترجمة إلى الوجهة التي تراها مفيدة أو مغذية للنهضة العلمية والفكرية والثقافية . وفي إطار تلك الحرية التي يشرف عليها خبراء وعلماء موثوق بهم . ومشهود لهم بالإخلاص وسعة الإدراك ، يمكن لحركة الترجمة أن تسير على نهج سليم . وتعطي أشهى الثمار وأطيبها . . .

رابعاً – **مستويات الترجمة** : لا شك أن الموضوعات التي ينتخبها المترجم ذات مستويات مختلفة . بعضها يعتبر غذاء لقطاعات عريضة من الناس . والبعض الآخر يستفيد منه فئات خاصة من العلماء والأدباء والمفكرين . النوع الأول

يكون رائجاً ويعطي عادياً ربحاً مادياً كبيراً وسريعاً ، والنوع الثاني يكون أكثر تكلفة ، وأقل عائداً ، بل ربما يخلف وراءه بعض الخسائر . . . والحقيقة التي لا مراء فيها أن دور النشر الخاصة ، وأحياناً بعض المؤسسات الرسمية ، تجري وراء الربح والعائد المجزي السريع ، حتى تثبت نجاحها وكفاءاتها ، وهذا خطأ فادح . . . إن ترجمة المستويات الرفيعة — مهما ارتفعت تكلفتها أو زادت خسائرها — لها رسالة إنسانية وقومية ، تتضاءل أمامها أية منفعة مادية ، ولهذا فإن المؤسسات الرسمية يجب أن تحمل عبء تلك الألوان الرفيعة المستوى ، لأن عائدها المعنوي أو الأدبي كبير ، فهي تساهم في إثراء فكر الصفوة من المثقفين ، وتطور من مواهبهم وأفكارهم ، وبالتالي ينعكس ذلك كله في إنتاجهم ، ومن ثم تتحقق الفائدة المرجوة لأوطانهم ، ولعامة المتلقين من شعوبهم . . . أقول هذا واجب المؤسسات الرسمية ، أو حركة النشر الغير رسمية ، فمن المفروض أن تساهم بنصيب ولو قليل في الاهتمام بهذا اللون من الترجمات ، وهي تؤدي بذلك واجباً منوطاً بها ، ولا بأس من أن تمد الجهات الرسمية يد الدعم لتلك المؤسسات الشعبية ، كي تشجعها على المضي في هذا الطريق ، ومما لا شك فيه ، ان إتساع دائرة الثقافة ، وانخفاض نسبة الأمية ، وارتفاع المستوى الاقتصادي والحضاري ، كل ذلك سوف

يساعد على ازدياد معدل التوزيع لتلك الكتب ذات المستوى الرفيع . . .

وبعد . . . أليس من المؤسف أن يتولى بعض الجهلة أو التجار ، بل بعض الأميين ، في أماكن مختلفة من عالمنا العربي ، مسئولية النشر في القطاع الخاص ، ثم يغرقون الأسواق بسيول جارفة من الأدب الرخيص ، وفن الجنس الساقط ، وقصص المغامرات التافهة . ويروجون تحت سمع وبصر الجميع لتجارتهم الملعونة . . . إنهم يقدمون للناس مخدرات من الفن والفكر . . . باسم الحرية . . . ولا يردعهم وازع من ضمير ... أو قانون . . . أليست هذه طعنة قاتلة موجهة لأذواقنا . . . وللأجيال الجديدة ؟ ؟

ثقافة الطفل

\- ١ -

لقد أصبح من البديهي أن ثقافة الطفل تلعب دوراً أساسياً في تحديد ملامح شخصيته ، وتشكيل وجدانه ، والكشف عن مواهبه أو استعداداته الفنية والعلمية والفكرية، كما أنها تساعده في اتخاذ الوجهة الصحيحة التي تناسب قدراته ، وتبشر بالصورة المستقبلية للدور الاجتماعي الذي سوف يلعبه على مسرح الحياة عندما يكبر أو ينمو عبر السنوات الطويلة . . .

الأمر الآخر الذي يجب الالتفات إليه هو أن تثقيف الطفل ليس عملية سهلة . لأن فهم الطفل وطبيعة تكوينه . والمؤثرات العديدة التي تترك بصماتها على شخصيته ، والعوامل النفسية والاجتماعية ، التي تربطه بقيمه الأخلاقية أوثق الروابط ، كل هذه الأمور أرضية ضرورية لبث بذور الثقافة فيها ، وتعهدها بالري والمخصّبات المختلفة .

إن ثقافة الصغار وثقافة الكبار مختلفتان أشد الاختلاف على الرغم من أن الأولى توصّل للأخرى ، بحيث يبدوان وكأنهما عملية واحدة مستمرة متصلة ، ومعنى ذلك أن الطفولة لها ما يناسبها من ألوان الثقافة والوسائل الثقافية التي تتفق وإمكانيات الطفل الاستيعابية ، والمراهقة فترة أخرى من العمر تتحرك في ضوء متغيرات نفسية وعضوية وعقلية ، تختلف كثيراً عن المرحلة التي سبقتها ، أما سن النضوج فإن الأمر يبدو أكثر وضوحاً ، ومن ثم تتنوع الثقافات والموارد العقلية والفنية ، ويصبح الإنسان قادراً على الاختيار ، ومؤهلاً لأن يشق طريقه بنفسه ، بصرف النظر عما قد يقع فيه من أخطاء ، أو ينحرف إليه من أحكام . . .

الطفولة إذن صفحة بيضاء تحتاج إلى خبرات واعية مدربة مؤهلة تأهيلاً عالياً ، لكي تسطر على تلك الصفحة المبادىء الأولى التي تصنع ما نسميه بالضمير ، وتحيط العقل بالبيئة المناسبة لنموه وممارسته لوظيفته الفطرية التي أودعها الله فيه ، والأخذ بيده إلى طريق الصدق والمعرفة والسلوك السوي . .

وإذا كانت الأساليب التربوية والثقافية تتنوع طبقاً للمستوى الحضاري والاقتصادي ، وللظروف البيئية والتاريخية فإن هناك أسساً عامة لا يصح تجاهلها ونحن نخطط لثقافة الطفل مهما كان جنسه ومهما كانت ظروفه . . .

إن الطفل في بداية حياته يتذوق الحياة ، ويكتسب الخبرات من خلال فمه ، فكل شيء تقع عليه يده ، ويريد أن يعرفه سرعان ما يدسه في فمه ، عندئذ يعرف الحلو والمر ، والصلب والسائل ، والساخن والبارد ، ويتكون عنده ما نسميه برد الفعل الفطري ، كأن يقبل على شيء ، ويرفض شيئاً آخر ، ويتطور الأمر فيستعمل الطفل حواسه مثل حاسة البصر والسمع واللمس ، ومن خلال تلك الحواس وغيرها تتكون لديه فكرة مبدئية عن الأشياء ، فتراه يبتسم أو يبكي ، ويقبل أو يدبر ، أو يلوذ بحضن أمه كي يحمي نفسه ، ثم تمتد يده بعد ذلك إلى الأشياء . ويجري عليها بعض التصرفات دون وعي ، فيحطم الأشياء ، أو يقذف بها هنا وهناك ، إنه بذلك يعبر عن نشاطه الزائد ، وعن رغبته الكامنة في المعرفة ، والطفل طوال تلك الفترة يتأثر بالجو المحيط به ، وبالعلاقات التي تربط بينه وبين ذويه . والعلاقات التي تربط بين الأفراد المخالطين له ، ثم ينتقل إلى مرحلة التقليد ، حيث يحاول التشبه بأمه وإخوته ، ويقلد المحيطين به في حركاتهم وكلامهم وتصرفاتهم ، إنه شديد الحساسية لكل ما يجري حوله . . . هذه الأشياء التي يلمسها ويراها ويسمعها ، تعتبر لوناً من ألوان الخبرات أو الثقافات التي تمده بمكتسبات جديدة تؤثر في حصيلته العقلية والعاطفية، وواضح أن دور الأم في هذه المرحلة دور أساسي في تشكيل شخصية الطفل ، ثم يأتي بعد

ذلك دور المعايشين له من أب وإخوة وأخوات وخدم وأصدقاء وجيران . . .

والواقع أن الطفل عندئذ يستطيع أن يميز أموراً كثيرة ، وبمجرد أن تنظر إليه نظرة عاتبة أو غاضبة ، نراه ينصرف عن إتمام الفعل الذي يفعله . ويدرك أن ذلك غير مرغوب فيه ، وإذا وجد الرضى على وجوهنا ، والابتسامة على شفاهنا ، والفرحة في أعيننا ، سرعان ما يندفع في حماسة لتكملة ما هو بصدده من فعل أو قول ، نحن إذن في هذه المرحلة نستطيع أن نعلم الطفل الكثير ، ونساعده على اكتساب الخبرات الهامة . شريطة ألاّ يحدث تناقض بين ما نقوله للطفل وما نفعله ، وألاّ نعاتبه على أمر ، ثم نأتي ونشجعه على نفس الأمر مرة أخرى ، ومما لا شك فيه أن ما يراه الطفل واقعاً سلوكياً . يكون أكثر تأثيراً وفعالية مما يراه مجرد قول لا أثر له في الممارسة الحقيقية . . .

وبعد ذلك يستملح الطفل القصص التي تروى له ، ويتأثر بالحوافز التي نقدمها إليه ، كمكافئة أو تشجيع ، كما يتأثر بالعقاب المناسب الذي نجريه عليه ، ويمكننا من خلال الحكايات البسيطة أن نزرع في نفسه وعقله العديد من الحقائق العلمية ، والقيم الاجتماعية والدينية ، ومختلف أنواع السلوك أو الآداب العامة . . .

إن دور الأسرة إذن حتى هذه اللحظة هو الدور الأساسي في تثقيف الطفل وتوعيته وتوجيهه ورسم شخصيته . ويا لها من مسئولية ضخمة . وخاصة إذا أدركنا أن كثيراً من الأمهات في العالم النامي ليس لديهن الخبرة الكافية . ولا التأهيل السليم ، للقيام بهذا الواجب المقدس . وفي هذا العالم النامي أيضاً يكون للمستوى الحضاري المنخفض ، وكذلك الوضع الاقتصادي المتدني ، يكون لهما آثار سلبية في العملية التربوية والثقافية للطفل ، ومن هنا تأخذ المشكلة حجماً أكبر . وطابعاً عاماً ، يقتضي من الجميع ، القيام بجهود شاقة لرفع هذه العقبات الصعبة من طريق المسيرة الاجتماعية ، وهي قضية أجيال متعاقبة قبل أن تكون قضية جيل بعينه ، كما أنها أمر متكامل يشمل النهوض بالمستوى الاقتصادي أو الثقافي والحضاري عامة، ومما لا شك فيه أن التقدم الاقتصادي سوف يساهم إلى حد كبير في وضع حلول جذرية وفعالة للمشكلة ، لكنه ليس العامل الأوحد في وضع العلاج الحاسم لتلك المشكلة ، فالأسرة الغنية مثلاً ، تمتلك الكثير من الإمكانيات المادية ، ولكنها قد لا تعرف الطريق الصحيح لتوظيف تلك الإمكانيات ، في خلق حياة متناسقة متوازنة ، تسد احتياجات الطفل النفسية والروحية والثقافية والتربوية ، في هذه المرحلة الحاسمة من حياة الطفل ، تلك المرحلة التي لها أقوى الأثر

وأبعده في تحديد شخصية الطفل ، بعد أن ينمو ويكبر ويصير رجلاً أو امرأة في سن النضوج والعطاء . . .

المرحلة الأخرى هي مرحلة المدرسة ، حيث يصبح الطفل قادراً على القراءة والكتابة ، ومشاهدة السينما والتليفزيون والمسرح ، وتتبع ما يكتب في قصص الأطفال وكتبهم المختلفة وصحفهم ومجلاتهم ، وهنا يقع الطفل في متاهات رهيبة ، من جراء المتناقضات المتكدسة ، فقد يرى شيئاً في برامج الأطفال . ويرى نقيضاً له في برامج أخرى أو في فيلم من الأفلام ، أو في أحداث البيت والشارع والمدرسة ، إن عملية الخلط في الثقافة والمبادىء والآداب ، دون تخطيط عام ، وبغير فلسفة شاملة واعية ، توقع الطفل فريسة للحيرة والتمزق والبلبلة ، ومناهج التعليم العتيقة ، وأساليبه المتعثرة التي تعتمد على التلقين والحفظ ، وإرهاقه بالمسئولية التي قد لا تتناسب مع سنه ومع قدراته ، قد تسبب له الضيق والملل والفشل ، وماذا ننتظر من طفل نحشره في حجرة دراسية مزدحمة ، ومع مدرس قليل الخبرة والتأهيل ، ومقاييس للقدرات تعتمد أساساً على الأساليب التقليدية في وضع الدرجات . وخطوط القلم الأحمر الذي يعتبر مهمته الأساسية وضع علامة صح أو خطأ ، وفي كثير من الأحيان تكون العصا هي الأسلوب الرئيسي للتقويم والتأديب ، والأمر الخطير هو أن تعليم الأطفال في دول العالم النامي — ومنها الدول العربية — ما زال محصوراً

بين جدران حجرة الدراسة الأربعة ، ولن يؤدي هذا السجن الصغير إلى خلق أجيال جديدة متفتحة قادرة على المشاركة في صنع حضارة حقيقية ، لا يمكن أن يوصلنا هذا الأسلوب العتيق إلى آفاق رائعة في عالم العلم والثقافة والفكر . . . وإنما لا بد أن تفتح الأبواب والنوافذ ، وينطلق الطفل إلى حيث المعامل الصغيرة المبسطة ليتعلم دروس الكهرباء والمغنطيسية وتطبيقاتها . . . وينطلق إلى الحدائق ليدرس على الطبيعة النباتات والزهور والبقول دراسة عملية . . . ويتلقى دروس الحيوانات والطيور في حدائق الحيوان . . . ويرى البحيرة والخلجان والجزر والجبال والتلال والسهول رأي العين . . . وهكذا يصبح الكون كتاباً مفتوحاً يستطيع الأطفال قراءته وفهمه . . .

— ٢ —

لقد اتضح لنا فيما سبق ، أن أساليب التعليم — وخاصة في المراحل الأولى — يجب أن تتخذ مساراً جديداً يتناسب وطبيعة الطفل ، وأن يستطيع الطفل عبر هذا المسار أن يوظف كل حواسه في الاستيعاب والفهم ، وبذلك تستقر المعارف والعلوم التي يتوصل إليها في عقله ، وترسخ رسوخاً يستعصي على النسيان ، دون بلبلة أو غموض ، فالخروج من بين الجدران الأربعة لحجرة الدراسة . والانفتاح على العالم الواسع يحل الكثير من عقده ، ويهدم الحاجز المخيف الذي يقف بين مواهب الطفل وقدراته المدفونة ، وبين الإبداع والإنطلاق والاستفادة الصحيحة من الحقائق العلمية . . .

تبقى قضية الكتابة للطفل ، وهي مسئولية ضخمة ، إن الكثيرين من الأدباء والكتاب — وحملة الأقلام عموماً — يتصورون أن الكتابة للطفل أمر سهل ميسور ، فهي تحتاج إلى موضوعات بسيطة ، وإلى تمكن في اللغة وإدراك لأسرارها البلاغية وقواعدها النحوية . وهم ينظرون إلى الطفل نظرة سطحية باعتباره رجلاً صغيراً لا أكثر ولا أقل ، وهو تصور

خاطىء تماماً ، فالطفل ليس رجلاً صغيراً ، ولكنه كائن حي يختلف تمام الاختلاف بشخصيته وأحلامه ووجدانه ونفسيته وقدراته عن الرجل ، بل يمكنني أن أقول إنه جنس آخر ، فليس شرطاً إذن أن من يكتبون للكبار قادرون على أن يكتبوا للصغار ، إن هذا الأمر يحتاج إلى مؤهلات معينة دقيقة ، أشبه ما تكون بما نسميه « بالتخصص الرقيق » في عصرنا . . .

فالذين يكتبون للأطفال يجب أن يكونوا على دراية كاملة بعلم النفس عامة ، ونفسية الأطفال خاصة ، وبذلك يفهمون طبيعة الأرض العذراء التي يسيرون على أديمها ، ويبذرون فيها البذور ، ويدركون ما يناسبها من محاصيل ، وما تحتاجه من ريّ وحرث وغير ذلك ، والأمر الآخر الوطيد الصلة بهذه النقطة ، هو التأهيل التربوي الذي يدخل في إطاره الأساليب المستحدثة ، والوسائل التعليمية المختلفة ، والعلاقات الاجتماعية ، والقيم الدينية كلها أشياء ضرورية يتسلح بها الذين يكتبون للأطفال خاصة ، وتأتي نقطة هامة جداً – خاصة في عصرنا هذا – وهي التأهيل العلمي ، بمعنى إلمام من يكتب للأطفال بالأسس العامة للعلوم المختلفة كعلم الحشرات والحيوان والعلوم الفيزيائية والبيولوجية ، وغيرها . . . وقد يُظن لأول وهلة أن هذه الاشتراطات تحمل في طياتها الكثير من التعسف والتشدد ، لكنها في الواقع أمور سهلة ، فأغلبنا يعرف الكثير عن تلك الأمور في المراحل الدراسية المختلفة ،

ولكي أضرب مثلاً لذلك « قصة النمل » التي كتبها المرحوم كامل كيلاني – طيب الله ثراه – فالطفل عندما يقرأ هذه القصة الجميلة ، يتعلم منها الكثير فيما يتعلق بذكاء النمل وصبره ودأبه ، ثم تلك الصورة الرائعة من التعاون والفهم المشترك بين أفراد هذه المملكة ذات المخلوقات الصغيرة ، ثم يدرك الطفل أسرار قدرة الله ، وبدائع صنعه ، ولا بد أن يتأمل الطفل تلك المخلوقة العجيبة « النملة » وما تبذله من جهد معجز يفوق حجمها بكثير ، هذا بالإضافة إلى ما يحصله الطفل من معلومات متنوعة عن هذا الأنموذج من عالم الحشرات. المرحوم كامل كيلاني يقدم ذلك كله بأسلوب قصصي مسلٍّ ، وفي أسلوب وألفاظ مناسبة لمرحلة العمر التي يكتب لها ، بل وبحروف كبيرة نوعاً ، ولا ينسى أن أدوات الشكل كالضمة والفتحة والكسرة وغيرها ، وخاصة بالنسبة لبعض الكلمات التي تعتبر جديدة على الطفل ، وكذلك أسماء الأعلام ، وما يصاحب ذلك من إخراج جيد للكتاب ، يجذب الطفل ويشد انتباهه . . .

ولا شك أن الذي يقرأ قصص كامل كيلاني لمراحل السن المختلفة ، يدرك مدى الجهد المبذول في إتقان صنعة الكتابة للأطفال ، ويدرك أيضاً ثقافة الكاتب الواسعة ، وإلمامه الشامل بنفسية الطفل وتفكيره ومكانه بين أسرته الصغيرة ، وأسرة المجتمع الكبير ، مما جعله بحق رائداً أول لأدب

في عالمنا العربي ، وقد لا يعرف الكثيرون منا أن لكامل كيلاني دراسات عميقة عالية المستوى في الأدب العربي القديم حيث كتب عن أبو العلاء المعري ورسالة الغفران ، كما كتب العديد من البحوث والدراسات ، لكنه عدل إلى أدب الأطفال وأدرك أهميته الكبيرة ، وخاصة بعد أن وجد أن الساحة تكاد تكون خالية تماماً من أدباء الأطفال في العالم العربي ، وأن المحاولات العرجاء سواءً أكانت مؤلفة أم مترجمة ، لم تستطع فهم الأبعاد الحقيقية ، ولا الرسالة الأصيلة ، ولا الإمكانيات الضرورية لأدب الأطفال العربي ، من هنا تبنى الرجل هذا العمل التاريخي الذي يعد بحق وثبة جديدة في أدبنا الحديث ، وعاملاً مؤثراً في تربية أجيالنا في السنوات الماضية .

الكتابة للطفل عملية ليست سهلة إذن كما يتصور البعض ، ولكنها مسئولية ضخمة ، وأي استهتار أو عبث بها ، يؤدي إلى عكس المطلوب تماماً ، ولن يأتي بالنتيجة المرجوة ، والذي لا شك فيه أن سوق أدب الأطفال سوق رائجة في عالم النشر اليوم ، وله عائد مادي مجز ، مما حدا بالكثيرين من المؤلفين إلى الكتابة للطفل على غير أسس قويمة سليمة ، ومن ثم امتلأت المكتبات بأخلاط شاذة من قصص الأطفال ومجلاتهم وكتبهم ، وأصبح أي كاتب قادراً في جلسة واحدة على أن يكتب قصة للأطفال ، دون التقيد بعدد معين من الألفاظ التي تناسب الطفل في إحدى المراحل ، كما كان يفعل المرحوم كامل

كيلاني ، الذي كان يزيد حصيلة الطفل من الألفاظ زيادة تدريجية سبب تخطيط واع ، قائم على الأسس التربوية والنفسية.

شيء آخر ، هو أن الاهتمام في أدب الأطفال ينصب على القصة الأدبية ، التي تتناول القيم العليا كالصدق والشجاعة والصبر والإيمان بالله والثقة بالنفس وما إلى ذلك ، لكن المجال في الكتابات العلمية للأطفال ما زال مجدباً ، ولا يوجد سوى شذرات قليلة مترجمة ، وأقل منها المؤلفة ، تلك التي تتناول العلوم العصرية والتكنولوجيا . . . وهذا أمر يجب الالتفات إليه ، لأنه يتعلق بتنشئة الطفل تنشئة علمية ، ويأخذ بيده إلى عالم العلوم الحديثة والتكنولوجيا ، فيبحث عن الأندية العلمية كي ينضم إليها منذ الصغر ، ويفكر بعد ذلك كيف يكون مهندساً أو طبيباً أو عالماً في الطبيعة . . . وهكذا . . . ولا شك أن تقديم المادة العلمية للطفل يجب أن تعد بطريقة شيقة مسلية ، وأن تكون موضحة بالصورة أو النماذج ، حتى تصبح في ذهنه حقيقة مجسدة . . .

وليت وسائل الإعلام هي الأخرى تدرك أبعاد تلك القضية التي تتعلق بتأهيل الطفل تأهيلاً علمياً ، فتبث في برامجها فقرات تتناول هذا الغرض ، بحيث يراها الطفل في التليفزيون ، ويسمعها في الإذاعة ، ويقرأها في الصحيفة أو المجلة ، ويشاهدها في المسرحية . . .

وفن التمثيل هو الآخر يجب أن يُخضع حيزاً منه لثقافة الطفل ، بأسلوب علمي تربوي سليم ، وفي ظل هذا التصور الشامل ، يمكننا أن نواصل مسيرة كامل كيلاني بعد أن خطا خطوات رائدة في أدب الأطفال وثقافة الأطفال . . .

— ٣ —

تكلمنا قبل ذلك عن المراحل المختلفة لنمو الطفل نفسياً وعقلياً ، وعرفنا كيف أن لكل مرحلة طبيعتها المتميزة ، وسماتها الخاصة ، وأن الطفل يكتسب الخبرات المختلفة في وقت مبكر ، وهذا نعتبره بداية التحصيل الثقافي للطفل ، وهناك أمر آخر يعتبر وسيلة نافعة من وسائل مد الطفل بالخبرات وتنمية مواهبه ، والكشف عن قدراته ألا وهي اللعب أو الدمى المختلفة ، ومما هو معروف أن اللعب ليست على مستوى واحد ، لأن الذين يخططون لصناعتها ، يفهمون بالتأكيد نفسية الطفل ومستوياته العقلية المتعاقبة ، ومن ثم يقدمون اللعب المناسبة لكل عمر ، وهكذا نرى اللعب المطاطية واللعب الخشبية والمعدنية ، ومنها ما تصدر عنه حركات تجذب انتباه الطفل ، وأخرى تطلق أصواتاً مميزة ، وأخرى تتميز بألوان زاهية جذابة ، كما أننا نتدرج من اللعب المبسطة التي تعاون الطفل في الاستمتاع بها ، إلى اللعب التركيبية ، التي يحاول الطفل أن يكوّن منها أشكالاً مختلفة ، كلعب المكعّبات والمستطيلات وغيرها ، ثم تأتي اللعب الميكانيكية التي تحركها

الترّوس ، واللعب الكهربائية كالقطارات والسيارات والدراجات الصغيرة وغيرها ، وهكذا تتعقد وتتطور اللعب من سن إلى سن ، وتتواكب مع ما يطرأ على عقلية الطفل ونفسيته من نمو واستجابة ، فتلبي احتياجاته الذهنية والنفسية ، على أسس علمية سليمة . . .

هذه اللعب ضرورية للطفل ، فهي تلعب دوراً ترفيهياً ودوراً تثقيفياً في نفس الوقت ، لكن المشاهد في دول العالم النامي ، أن هذا الجانب مهمل تماماً بالنسبة للطفل وخاصة الأسر الفقيرة ، التّي يعتبر الغذاء والكساء مشكلتها الرئيسية ، لكن كيف نلتمس العذر للقادرين الذين لا يدركون أن هذا الترّفيه أو تلك اللعب تعتبر مسألة أساسية بالنسبة للأطفال ، كما أن البعض لا يعرفون كيف يختارون الأدوات المناسبة للعب ، وكثيراً ما نثور ونؤنب الطفل عندما نراه يحطم لعبة من اللعب ، ان هذا التصرف من الأطفال ما هو إلاّ محاولة لاكتشاف ما بين يديه من أدوات تبدو غريبة لأول وهلة ، ومليئة بالأسرار والرموز ، إنه يريد أن يعرف ما بداخل الشيء ، هذا الشوق الجارف إلى المعرفة ، يتقد منذ أقدم العصور في داخل الإنسان ، أعني في فطرته ، وهو أمر طبيعي بالنسبة للأطفال . بل أن الطفل لا يستطيع أن يسيطر على عواطفه عندما يرى طفلاً آخر يلهو بلعبة من اللعب ، فيبكي ويحاول أن ينتزعها منه ، إن حاجة الطفل الماسة للعب والترّفيه

تكاد تكون متشابهة لحاجته إلى الطعام والشراب ، فالأولى تروي ظمأه الذهني والروحي ، والثانية تسد جوعته . . .

وتمتد عملية التطور الترفيهي بالنسبة للطفل عندما يذهب إلى دور الحضانة وحدائق الأطفال ، فيجد اللعب الرياضية التي تساهم في تربية جسده ، وتنمي مداركه ، سواء أكانت لعباً فردية أو لعباً جماعية ، وفي إطار هذه اللعب يكتسب الطفل معرفة بالنظام وحسن التصرف والتعاون والثقة بالنفس ، كما يتعلم قواعد المنافسة ، وبذل أقصى ما يستطيع من جهد حتى يحقق التفوق الذي يحلم به ، ومن خلال الممارسة أيضاً يتعرض لبعض الإصابات أو الخلافات ، فتتدعم خبراته في مجال الحذر والحرص حتى لا يتكرر ما يؤلمه جسدياً أو نفسياً .

ويدخل ضمن هذا الإطار النشاطات الفنية كالموسيقى والغناء والرسم ورواية القصص ، وهنا يأتي دور المشرفين الذين يضعون أعينهم على الأطفال ، محاولين أن يدرسوا شخصياتهم ، وما يعتورها من انحراف أو خلل ، وأن يكتشفوا مواهبهم في أي فرع من الفروع ، فيقومون بالواجب حيالها لإبرازها وتنميتها . . . لكن كيف نكتشف الأطفال الموهوبين؟

لقد أظهرت الدراسات الحديثة أن ٥ ٪ من الأطفال يمكن اعتبارهم موهوبين ، لكن هذه النسبة للأسف لا تلقى الرعاية الكافية ، وإذا أرادت ربة البيت أن تعرف العلامات

التي تنبي عن موهبة طفلها قبل سن المدرسة فسوف تلاحظ الآتي :

أولاً — الطفل الموهوب ، يكون عادة متيقظ الذهن ، فضولياً يسأل عن أشياء كثيرة ، ويريد أن يعرف كل ما يمر به من أحداث وأشخاص وأشياء ، كما أنه يبدو قوي الملاحظة ، بحيث يفهم أكثر الخبرات أو الوقائع التي تمر به .

ثانياً — الطفل الموهوب نراه يحاول الربط بين الأشياء وبعضها ، أو يجد العلاقة بينها ، وهذا يعني أنه ذو نظرة شاملة واعية . . .

ثالثاً — والطفل الموهوب يستعمل في كثير من الأحيان وسائل مبتكرة لحل مشاكله ، إنه يقدح ذهنه دائماً بحثاً عن حلول جديدة لما يصادف حياته من عقبات أو مشاكل .

رابعاً — ومما يلاحظ على الطفل الموهوب أنه يستعمل كلمات كثيرة في لغته اليومية ، ويثريها باستعمال التشبيهات والكنايات . . . وهو يفعل ذلك بطريقة تلقائية دون أن يعرف شيئاً عن علوم البلاغة أو الفصاحة .

خامساً — والطفل الموهوب أيضاً نلاحظ عليه أنه يميل إلى الجلوس بمفرده أحياناً ، ويلوذ بالتأمل والتفكير والتركيز ، وهو يستمتع بذلك أيما استمتاع . . .

سادساً — ونرى أيضاً ذلك الطفل يسأل دائماً أسئلة كثيرة وعميقة ، ومن طريقة السؤال ودقته ندرك أنه طفل غير عادي ، ومن المستحيل أن نخدعه بالإجابات السطحية أو الخادعة ، وسوف يضيق علينا الخناق حتى يعرف الحقيقة كاملة ، أو يظهر جهلنا بما يسأل عنه . . .

ويؤكد الخبراء أن على الآباء إدراك أن الطفل الموهوب ، ليس معصوماً من الخطأ أو سوء الفهم . فهو مهما كان الأمر ذو قدرات معقولة ، ولا يصح أن نطالبه بأكثر من طاقته ، ويلقي الخبراء مسئولية تنمية وتشجيع مواهب الطفل على الآباء والأمهات ، الذين يجب عليهم إيجاد الوقت الكافي للإجابة على أسئلتهم وتعليمهم المزيد ، وتقوية ملاحظاتهم ، وبالإضافة إلى إعطائهم جرعات كبيرة من الحب والحنان ، بذلك تطمئن قلوبهم ، ومن ثم يعملون بروح عالية وأمل كبير . . .

الواقع أن تثقيف الطفل قضية هامة ، وليست بالبساطة التي نتصورها ، وبالنسبة للإذاعة والتليفزيون وصحف الأطفال وكتبهم ، يجب أن تكون هناك لجنة من كبار المفكرين وعلماء التربية وعلم النفس ، لتضع القواعد والمبادىء التي لا بد من مراعاتها عند عمل البرامج الخاصة بهم ، وبالنسبة للشكل الذي تقدم به هذه البرامج فلا بد أن ينضم إلى ذلك الفريق كبار

الفنانين المتخصصين في الإخراج الإذاعي والتليفزيوني مع علماء في الإعلام .

إن برامج الطفل يجب أن تغرس فيه فضائل الحب والخير والجمال والإيمان بالله ، والثقة بالنفس ، وفتح آفاق جديدة لإبداعه والكشف عن مواهبه ، فما أكثر الموضوعات التي لا يمكن أن يفهمها الطفل إلاّ بمساعدة أبويه . . .

وهل هناك أخطر من تلك العملية التي تشارك في تشكيل العقل والوجدان والنفس ؟ ؟ ان ثقافة الطفل مسئولية كبرى ، وهي مسئولية الأسرة ، ومسئولية الجهات الرسمية التي تحرس وسائل الأعلام . . .

المرأة ..
في السينما العربية

ما من شك في أن فن السينما كان من السمات البارزة للقرن العشرين . ولا يمكن أن يتجاهل مؤرخ أو باحث الآثار الضخمة التي تركها هذا الفن في حياة الناس شرقاً وغرباً . من هنا كانت أهمية السينما ، ذلك العالم الساحر المثير . الذي أوتي العديد من الإمكانيات الفنية المبهرة . فالمشاهد الخلابة التي تصور هنا وهناك ، والنساء الجميلات اللاتي يلعبن الأدوار المختلفة ، والرجال الأبطال الذين يخوضون المعارك . ويأتون بالخوارق حتى لكأنهم ليسوا من البشر . والأحداث المتلاحقة التي تشد الانتباه . وتجذب إليها المشاهدين . والديكور والأضواء والحوار المصنوع في براعة وإتقان . وتصارع الخير والشر ، والحب والكراهية ، والإيثار والأثرة . وعجائب الطبيعة في مختلف الأنحاء ، كل هذه الأمور وغيرها . أعطى السينما قوة تأثير لا مثيل لها وخاصة في النصف الأول من هذا

القرن ، ولهذا تسلل إليها الإعلام الحديث ، واتخذها وسيلة لبث الكثير من الأفكار والمعتقدات لدى الجماهير العريضة ، ومن ثم أصبحت سلاحاً هاماً من أسلحة الحرب ، في مجال السياسة والفلسفات والاقتصاد . وبالتالي تمكن المهيمنون على صناعة السينما من جعلها تجارة رابحة ، تحقق الكثير من العائد المادي بالإضافة إلى كونها وسيلة إعلام وتوجيه للرأي العام . . .

وحينما بدأت السينما العربية خطاها الأولى ، لجأت إلى التقليد ، حتى تضمن لنفسها النجاح ، وتحافظ على مستوى فني مقبول ، كما أن روادها الأوائل تلقوا أصول هذا الفن في أوربا وأمريكا خاصة ، وبالتالي لم يستطيعوا الإفلات من الأساليب والقيم الوافدة التي قد تتناقض إلى حد كبير مع قيمنا الموروثة ، وطبيعة مجتمعنا المتميزة . . .

كانت السينما في أغلب أفلامها تصور المرأة وكأنها لم تخلق إلاّ للمتعة وعبث الرجال ، فهي دائماً مدار الحدث ، ورمز النزوات والمغامرات العاطفية ، اختفت أو كادت صورة المرأة المكافحة التي تعيش في ظل المعاني الأسرية المقدسة التي عرف بها الشرق المسلم ، وأصبح المشاهدون يرون المرأة المبتذلة التي تخرج إلى الحياة ، وتخالط الرجال ، وتبحث عن الهوى والمتعة ، وتخون زوجها ، وتهمل أطفالها ، تحت راية

ما يسمونه بالحب ، حتى استقر في الأذهان أن الحب ليس له سوى معنى واحد ، ألا وهو الشهوة أو العلاقات الجنسية ، ومن ثم سادت هذه الموجة غالبية القصص السينمائي ، وهيمنت على الأفلام المحلية والمستوردة ، وبات جلياً أن المرأة لها الحق كل الحق في أن تمارس كل آلوان العبث في حرية تامة ، وإلاّ فهي الضحية ، وهي المظلومة المحرومة من حقوقها الإنسانية ، فلها باسم الحب أن ترتكب الحماقات ، وتشتت شمل الأسر ، وتهرب وتخون وتدمر ، ثم يلتمسون لها الأعذار ، إذ أنها في نظرهم مقهورة مضطهدة . . .

وكلما تقدم فن السينما وانتشر ، تبع ذلك موجات من انحراف النسوة ، وذلك لتأثرهن بكل ما يشاهدنه على تلك الشاشة ، حتى استقر في أذهانهن أن الحياة الحقيقية السعيدة هي تلك الحياة التي يرونها مصورة في السينما ، أي أن الحقائق والبديهيات قد انعكست تماماً ، فتحول الوهم والزيف إلى واقع يجب أن يسود ، وأصبحت المثاليات مجرد خرافات وأكاذيب وخدع لا معنى لها ، بل أصبح أبطال الشاشة رجالاً ونساء ، هم المثل والقدوة لشباب الجيل وفتياته ، وأخذن يقلدن ما يرونه في السينما من تصرفات وملابس وأزياء وأفكار وحوادث .. وبات جلياً أن اللصوص والقتلة والمغامرين والمعتدين على كرامة الأسرة . . . باتوا نماذج تحتذى ، وأصبح أسلوب حياتهم ببريقه الأخاذ هو الأسلوب الأمثل . . .

وهكذا أخــذت المرأة عنــدنا ــ عبر السينما ــ من الغرب مباذله ، ولم تعرف شيئاً عن حسناته ومنجزاته العلمية ، وإذا كانت السينما الغربية انطلاقاً من واقع اجتماعي معين يختلف عنا تمام الاختلاف ، فلماذا تنطلق السينما العربية من نفس ذلك الواقع الغريب . . . والكارثة أن كتاب السينما لا يكتبون ما يحسونه فعلاً ، لكنهم أصبحوا مطية للمنتج السينمائي ، فأخذوا يسطرون ما يريده هو ، وجعلوا من أنفسهم خدماً لأذواق الجماهير الفاسدة المغلوبة على أمرها ، أو المخدوعة في تصوراتها ، وذلك كله ضماناً لتحقيق الربح ، والوصول إلى النجاح بأقصى السبل وأيسرها . . . أيمكن أن نقول أن المرأة عندنا كانت ضحية مؤامرة غادرة ، مؤامرة لها أبعادها وجذورها الغائرة ؟ ؟

كيف لا وقد أصبح اختطاف الزوجات تحت مظلة الحب والحرية أصبح بطولة ، بل حقاً لمن يستطيع أن يستميل قلبها ، ويوقعها في شباكه ، وأصبح تمرد الفتاة على توجيهات أبيها وأمها هو أسلوب العصر ، لكي تثبت ذاتها ، وتختار طريقها ، وهي بعد لم تكتمل لها الخبرات أو المؤهلات التي تجعلها تحسن الاختيار ، وتميز الخبيث من الطيب ، الواقع أن السينما العربية ــ في أغلب الأحيان ــ ساهمت بقدر كبير ، في إفساد الحياة الأسرية ، وهدم مكانة المرأة ورسالتها الاجتماعية المقدسة ، ولونت العلاقات بين المرأة والرجال بألوان فاسدة

فاضحة ، حتى صار الفجور تقدمية ، والإباحية مدنية ، والاختلاط حقاً مشروعاً ، ولم يعد هناك أدنى حرج في تحقيق الملذات والعبث ، في كثير من القطاعات الاجتماعية في بلدان العالم الإسلامي ، باستثناء فئات قليلة ، ظلت تقاوم تيار الفساد والانحدار والدمار في استماتة بطولية . . .

إن الواقع الذي تقدمه السينما المعاصرة واقع زائف كما قلنا ، وهذا الزيف يحمل مسئولية كبيرة في التلف الذي تمكن من أفكار المرأة وروحها وسلوكها ، والعجيب أن الأصوات المخلصة الصادقة التي حاولت أن تطلق صيحات التحذير قد عجزت عن الوصول إلى قلوب الناس ، كما أن الهيئات الإصلاحية والدينية لم تفكر في المساهمة في خلق فن سينمائي نظيف ، يملأ الفراغ ، ويقوّم الاعوجاج . ويعطي المناعة اللازمة ضد الدعارات المستوردة بأساليبها المثيرة الساحرة التي فتنت الألباب والنفوس .

وعندما حاولت بعض الدول أن تضع الإنتاج السينمائي تحت سيطرتها ، كي توجهه الوجهة السليمة ، وقعت في كثير من الأخطاء التي ترتكبها الجهات الرسمية عادة ، كأن أسندت الأمر إلى فئة من المحترفين السياسيين أو الحزبيين ، ولم تحافظ على الأشكال الفنية الجذابة ، أو تختار المضامين المناسبة ، وتحكم الهوى في اختيار الموضوعات والأشخاص ، وانعدم الحافز

الشخصي أو الفردي ، وهكذا كان الفشل وكان البوار والخسائر المادية هو النتيجة الحتمية لذلك ، بل إن أجهزة الرقابة الفنية ، كانت تهتم بأمور ثانوية تافهة ، فتقص من الأفلام ما تعتبره إساءة لجهة رسمية من الجهات ، وتمحو بعض المناظر الماسة بالذوق العام ، وتترك البناء الفني والقصص على ما هو عليه ، فجهات الرقابة في الواقع لم تضع حلاً جذرياً للمخالفات الصارخة في القيم والمبادىء ، وإنما ركزت على جزئيات بسيطة ، لم يؤثر حذفها في السياق العام للفكرة التي يعالجها الفيلم السينمائي ، أو القصة التي يتحرك في إطارها الشخصيات والأحداث والحوار . . .

خلاصة الأمر أن السينما جنت على المرأة العربية والمسلمة جناية بشعة ، وحصرتها في دائرة المتعة والتسلية والانطلاق الأرعن ، وإن نظرة واحدة إلى مجتمعاتنا وما وصلت إليه من تسيب وانحراف ، تؤكد ما وصلنا إليه من أحكام ، ومن العدل أن نقرر أيضاً أن هناك بعض النماذج المشرفة التي حاولت من خلال الشاشة أن تؤكد قيمنا ، وتضع المرأة في المكانة اللائقة التي ارتضاها لها الله ، لكن هذه النماذج الفريدة أقل من القليل . . .

والأمل معقود بحمَلة الأقلام ، ورجال الفن الأصلاء ، وألسنة الدعوة الدينية ، والباحثين الاجتماعيين ، معقود

بهؤلاء جميعاً بأن يدركوا حجم المشكلة ـ وأبعادها الحقيقية ، وأن يلعبوا دوراً بناءً في الحفاظ على الأسرة من الانهيار ، وعلى المرأة من الضياع والدمار ، وأن يساهموا في بناء فن سينمائي يكون عنواناً للحق والخير والحب والجمال ، في ضوء المعاني الخالدة التي عمر بها تراثنا الأصيل .

رجل الدّين في أدبنا المعاصر

إن المطلع على الآداب الأوربية والأمريكية والروسية خاصة ، يلاحظ ظاهرة تبدو لأول وهلة غريبة ، أو ملفتة للنظر ، وهذه الظاهرة تكاد تكون سمة عامة في تلك الآداب اللهم إلاّ في النذر اليسير من القصة أو المسرح أو السينما : هذه الظاهرة هي إبراز رجل الدين أو الشخصية المتدينة بصورة سيئة ، تشمئز منها النفس ، أو تكون مثاراً للسخرية أو السخط ، فنرى كاتباً كبيراً ، وفيلسوفاً مشهوراً مثل « برنارد شو » في إحدى مسرحياته « تلميذ الشيطان » يجعل من رجل الدين أو القس مثالاً للانتهازية والنفاق والعبث ، ويرسم له في الحياة أدواراً منفرة ، تبعث على الغيظ والضيق ، وهذا بطبيعة الحال له آثار خطيرة على فكر الناس وسلوكهم ونظرتهم إلى الدين ورجاله ، نرى هذا في أدب « شو » ودستوفسكي وسارتر وسيمون دي بوفوار وأدباء الثورة الفرنسية والبلشفية ومن أتى بعدهم . . .

ثم يأتي بعد ذلك أدباء الأمة العربية والإسلامية ، ويسقطون في مباءة التقليد الأعمى ، فلا يقلدون الأشكال الفنية ، والصور الأدبية المستحدثة فحسب ، ولكنهم للأسف يستعيرون الأفكار والشخصيات ، وينسجون على منوالها ، ويحاولون هم أيضاً أن يضعوا لرجل الدين صفات وسمات أبعد ما تكون عن الحق والإنصاف ، وتتنافى في كثير من الأحيان مع الواقع الذي نعايشه ، وينسون أن رجال الدين كغيرهم من فئات المجتمع فيهم المثل الطيب الذي يجب أن يحتذى ، وفيهم النموذج الذي قد يميل به الهوى عن الطريق السوي ، وينسى كتابنا أيضاً أن الظروف التاريخية والسياسية في الغرب تختلف كثيراً عن مثيلاتها في الشرق المسلم . . .

وقصة الخصام بين الفن والدين حدثت في الغرب عامة عندما قامت النهضة العلمية ، وظهرت الاكتشافات والنظريات الجديدة التي تتعلق بكروية الأرض وجاذبيتها ودورانها ، كما ظهرت مناهج جديدة للبحث في مختلف العلوم والمذاهب الفلسفية المتنوعة ، ولقد وقفت الكنيسة في الغرب موقفاً متصلباً إزاء هذه النظريات العلمية والفلسفية الجديدة ، فاتهمت الكثيرين من العلماء بالكفر والزندقة أمثال « جاليليو » وغيره ، كما حكمت على بعضهم بالموت أو السجن أو الطرد من الكنيسة ، فضلاً عن أن بعض رجال الدين هناك قد مالئوا عدداً من الحكام والقياصرة ، الذين عرفوا بالظلم والاستبداد ،

من هنا كان أحد شعارات الثورة الفرنسية « اشنقوا آخر ملك ، بأمعاء آخر قسيس » ومن ثم اضطربت الأمور ، وهذا لون من التصادم أو الصراع بين رجال الدين في الغرب ، ورجال الفكر والسياسة . . . تلك هي قصة الخصام بين الدين والفكر والفن في أوربا ، ولهـــذا كان موقف رجال الفكر والفن في الغرب موقفاً قاسياً بالنسبة للدين ورجاله ، ونسي هؤلاء الكتاب الكبار أن هناك فرقاً جوهرياً بين أخطاء الرجال ، وأخطاء المبادىء ، ولا يصح أن تلصق انحرافات بعض الناس بما يعتنقونه من دين ، فالأديان براء من مثل تلك التصرفات الخاطئة . . .

لكن بلادنا الإسلامية في واقعها التاريخي والسياسي لم تمارس هذا اللون من العداء الشديد بين الدين والفكر ، بل إن رجال الدين الإسلامي في الشرق استطاعوا أن يحملوا لواء الدعوة إلى الحرية والتجديد والعلم الحديث نذكر منهم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ومحمد إقبال وجمعية علماء الجزائر وكبار علماء الشام والعراق والجزيرة العربية والهند وليبيا والمغرب العربي ... هؤلاء الرجال وغيرهم استطاعوا أن يواكبوا العصر ، ويرتبطوا بقضايا الجماهير ، ويتخلصوا من إسار الجمود والتخلف ، وكانت لأفكارهم الغلبة على غيرهم من المتزمتين وقصار النظر ، فأصبحت آراؤهم هي السمة الغالبة في موكب النهضة الإسلامية الشاملة في العصر الحديث . . .

من هنا نصل إلى نتيجة هامة وهي أن خصام الدين والفن والفكر الذي اشتعل أواره في الغرب . لم يكن له شبيه في الأمة الإسلامية . فضلاً عن أن طبيعة العقيدة الإسلامية لم تكن بطبيعتها بيئة مناسبة لترعرع مثل هذا الخصام وانتشاره .. فلماذا يقع كتابنا وفنانونا في الفخ الذي نصبته لهم قوى العدوان والحقد الاستعماري . وقوى الإلحاد والصليبية المتعصبة ؟ ؟

ولم يقف الأمر عند حد الكتابة الروائية والمسرحية والسينمائية وإنما تعدى ذلك كله إلى رسامي الكاريكاتور ، ومؤلفي النكات . حتى استقر في أذهان الكثيرين من شبابنا أن رجل الدين بسمته المعروف ، وزيه المميز ، هو عنوان لكثير من الانحرافات والجمود والتعصب والتزمت ، وفي ذلك خطأ كبير ، وظلم فادح لا يتفق مع العدل والمنطق والواقع التاريخي.

إن من يقرأ قصة « الأرض » للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي ويرى شخصية « الشيخ الشناوي » وهو يمالىء الفساد والقهر ، وينحاز لأصحاب النفوذ والسلطة ، سوف يستقر في وجدانه أن « الشناوي » مثل سيىء للعمل الاجتماعي الذي يجب أن يؤديه ، حتى الكاتب الكبير نجيب محفوظ لم يسلم هو الآخر من تلك البدعة الشائنة . حين جعل من شخصية « الجنيدي »

إنساناً منعزلاً عن الحياة الصاخبة . غارقاً في تهويماته وتسابيحه.
بل إن توفيق الحكيم والدكتور طه حسين لمسوا تلك « الشخصية الدينية » بأسلوب يمم عن الطعن وعدم الرضى . ناهيك بما فعله كتَّاب اليسار المغرضين من هدم وتدمير للدين ورجاله دون تفرقة بين فرد وآخر . . . ولقد خلط بعض الكتاب بين رجل الدين الصحيح المؤهل لحمل أمانة الدعوة تأهيلاً علمياً وأخلاقياً صحيحاً . وبين أنصاف المتعلمين ممن انتسبوا زوراً وبهتاناً للدين وعقيدته السمحاء . أو بعض الجهلاء الذين جعلوا من أنفسهم متصوفين ، فكان أن جاءت أحكامُ هؤلاء الكتاب. وتصويرُهم للشخصية الدينية تصويراً شائناً مبتوراً، بعيداً عن الصدق والموضوعية . .

إن رجل الدين — أو عالم الدين — وهو التعبير الأدق . رجل يعرف عن يمين حق الله وحق الناس ، ويدرك واجبه في هذه الحياة ، على ضوء ما استقاه من شريعة الله ، ويربط بين القول والفعل ، ويمزج بين المبادىء المجردة ، والسلوك العملي ، إنه مثال حي متحرك للقيم الروحية الخالدة ، التي تملأ القلوب والعقول بنور الحق والحب والعدل والحرية . ومن ثم فإن له دوره الإيجابيَّ الفعال في الحياة ، وهو يقف موقفاً واضحاً محدداً من قضايا الناس والعصر الذي يعيش

فيه . ويبشر دائماً بالفضيلة والخير ، وينفر من الشر والرذيلة ، ولا يخاصم نظرية من النظريات ، أو فلسفة من الفلسفات إلا إذ ثبت خطؤها ، أو تعارضت مع نص ثابت من نصوص كتاب الله . . . مدركاً أن حرية الدراسة والبحث مكفولة للجميع في حرية تامة ، ولا شك أن تجربتنا الحضارية في القديم والحديث تؤكد هذا المعنى تأكيداً لا لبس فيه ولا غموض . . . ورجل الدين لا يمالىء ظلماً ، ولا يرهب سلطاناً ، ولا يؤيد فساداً . ومن ثم فلا وجود لما يسمونه في الغرب خصام الدين والفن والفكر . ففي بيئتنا الإسلامية تتلاقى قيم الدين والفكر تحت مظلة التوحيد والإيمان ، ويعبر الفن الصحيح الأمين تعبيراً واعياً صادقاً عن هذا الالتقاء المثمر المفيد . كما يعبر في أمانة عن الواقع النفسي للفرد ، ذلك الواقع الذي يعلو ويهبط ، ويقوى ويضعف ، ويفرح ويحزن ، ويتأثر ويؤثر ، حيث يبدو الإنسان مخلوقاً طبيعياً تحتشد فيه نوازع شتى ، ورغبات متباينة ، ومن ثم يخطىء ويصيب ، ويستقيم ويميل . لكنه يتجه في محصلة سلوكه إلى الأفضل دائماً . . .

وإذا كان للفن شطحاته ، وللدين التزاماته ، فإن الفنان المؤمن يستطيع أن يمسك بميزان الحياة ، ويفعل فعله في خلق الصورة المثلى الطموحة ، تلك الصورة التي تحيل الحياة إلى جنة وارفة الظلال ، وصدق من قال :

« على رجال الفن أن يتدينوا . وعلى رجال الدين أن يتفننوا » ، ولنكن دائماً على حذر من تلك « المسلّمات » الخاطئة التي صنعتها فلسفة الغرب وملاحدته والمتعصبون من أبنائه . حتى نحافظ على أصالتنا وتميزنا وصدقنا الفكري والفني والعقائدي . . .

مؤهلات الأديب المعاصر

يقولون « إن الأديب مرآة عصره » ، وهو قول على جانب كبير من الصحة ، فالأديب يرى ويسمع ، ويشعر شعوراً عميقاً بكل ما حوله ، ويخوض العديد من التجارب المختلفة في حياته ، كما أنه يسعد ويشقى ، ويضحك ويبكي ، ويجوع ويشبع ، ويحب ويكره ، ويقرأ الكثير من هنا وهناك ، ويتأثر بالكثير من الشخصيات والأحداث والمواقف وبكل ما يحيط به ، ثم يعبر عن ذلك كله في كتاباته شعراً أو نثراً ، فيكتب القصيدة ، أو يهندس المسرحية ، أو يسجل الخاطرة ، أو يسطر القصة ، من خلال فهمه للأمور ، أو موقفه من الحياة والناس ، والأديب يعايش الكثير من التجارب الشخصية أو تجارب الغير ، وقد تستغرقه تجربة تاريخية فيحيى بين تفاصيلها ، ويغوص إلى أعماقها ، ولهذا يمكن أن نقول أن الأديب ليس مرآة عصره فحسب ، بل مرآة لكل العصور التي استهوته وفهم أسرارها ، وأدرك المؤثرات أو الوقائع التي تركت بصماتها على حركة التاريخ . . .

والدارس لتاريخ الآداب العربية ، وغير العربية سوف

يلاحظ أن لكل حقبة تاريخية سماتها وملامحها الخاصة التي تميزها عن غيرها من الأحقاب . فالعصر الجاهلي له طبيعته ومميزاته . والعصر الإسلامي الأول دخلت في أدبه قضايا جديدة متنوعة . واتجاهات فكرية مستحدثة كان منبعها بزوغ الدعوة الإسلامية ومنهجها وأخلاقياتها في السلم والحرب والتشريع والآداب العامة . والعلاقات الجديدة سواء أكانت اجتماعية أو فردية ، ثم جاء العصر الأموي ، ومن بعده العصر العباسي بقرونه المتتالية فظهرت الآداب في ثوب مبتكر ، فتضمن ألواناً من الفكر والفلسفة . عليها ظلال الترجمات والآثار الفارسية والإغريقية والهندية . كما بدا واضحاً في شعر الشعراء . وكتابة الكتّاب . ورسائل المؤلفين . وتصنيفات المصنفين ، بدا فيها ألفاظ وتعبيرات تعكس مختلف العلوم والمصطلحات الجديدة . فأصبحت قصائد الشعراء سجلاً لمذاهب المفكرين والفلاسفة . وصدى للصراعات المذهبية في السياسة والتفكير الفلسفي . أو وعاء التمت فيه عصارات الحضارات القديمة ، والمنجزات الثقافية الجديدة ، كما قدمت صورة واقعية مميزة للمجتمعات التي نمت واتسعت وترعرعت فيها ألوان شتى من المعـــارف والعلوم ، حتى الحركات المتطرفة ، والمذاهب الجانحة . والتمردات السياسية أو الفقهية ، وجدت لها من يحمل لواءها من الشعراء والكتّاب ويدافع عن قضيتها في تفانٍ وإخلاص . . .

بل ان أساليب التعبير نفسها ، من حيث التعقيد أو السهولة ، ومن حيث الالتزام بالمحسنات البديعية أو التحلل من قيودها ، تماوجت هي الأخرى صعوداً وهبوطاً ، وذلك لتأثرها بالجو العلمي السائد ، وبحركة التقدم العلمي والفكري . . .

من هذا المنطلق التاريخي ، يمكننا أن نجيب على ذلك التساؤل الملحاح الذي يردده الكثيرون من شبابنا ألا وهو :

ما هي مؤهلات الأديب المعاصر ؟ ؟

إن من البديهي أن لكل إنسان استعداداته الخاصة ، وميوله الشخصية ، أو موهبته الفطرية ، وهي أمر أساسي في أية مهنة أو حرفة يختطها الإنسان في حياته ، ثم يأتي بعد ذلك دورنا نحن كأفراد في رعاية هـذه الموهبة وصقلها ، ودعمها بكل ما يقويها وينميها ، حتى يمكنها أن تؤدي الرسالة المنوطة بها ، أو تلعب الدور الذي يوائمها ، ومن ثم لا بد من اشتراطات جوهرية في هذا المجال لا غنى عنها لأي أديب يريد أن يقدم عملاً أصيلاً في أي فرع من فروع الأدب .

وأول هذه الاشتراطات اللغة ، لأنها الأداة التي سوف يستعملها الأديب في صناعة أفكاره وإلباسها الثوب المناسب لها ، ولذلك فإن تعلم اللغة العربية ، والاطلاع على أسرارها وقواعدها ودلالات ألفاظها . والإلمام بقدر معقول من تراثها

يعتبر مسألة حيوية بالنسبة لأي أديب يريد أن يكون له شأن مذكور في عالم الأدب .

الأمر الثاني هو أن يكون امتلك الأديب – الذي يعتبر مرآة عصره – حصيلة من الثقافة العامة ، تلك الثقافة الشاملة التي تمكنه من الرؤية السليمة ، والحكم الصادق . والرأي الصائب ، لأن الانغلاق والتموقع في حيز ضيق من الثقافة ، سوف يعمي عينيه عن إدراك الكثير من الحقائق ، وسوف يفقده القدرة على تبين العلاقات السياسية التي تحكم مختلف الأشياء والنواحي والاتجاهات ، ومن ثم يأتي فكره قاصراً غريباً ، ولذلك فإن هذه الثقافة العامة يدخل في إطارها مختلف فنون العصر وعلومه وتياراته السياسية والفكرية والاقتصادية ، وما يصطرع في بيئته من تناقضات ، أو من سلبيات وإيجابيات .

الأمر الثالث هو أن التجارب الأدبية المتنوعة لكبار كتاب العصر تعتبر حقلاً خصباً ، أعني مدرسة حقيقية يتعلم الأديب من خلالها الكثير من أساليب العرض ، وإبراز الآراء ، وطريقة الإقناع ، وروعة التأثير ، هذه النماذج الرائعة هي في واقع الأمر الأستاذ الأول لأي أديب ، وهي تأتي قبل الدراسة الأكاديمية للعلوم الأدبية مثل فن القصة أو فن المسرحية أو أوزان الشعر ، وتصوري أن تعلم هذه القواعد ، يجب أن يسبقه الاطلاع على النماذج الأدبية وهضمها ، لأن قواعد تلك الفنون تبنى أساساً على نماذج سابقة . فنحن نعلم أن

المدارس الأدبية أتت في مرحلة تالية للإنتاج الأدبي المتميز . أي أن النماذج أولاً . ثم يأتي التقعيد أو وضع النظريات والمواصفات الخاصة بكل مدرسة من المدارس الأدبية . . . أو بمعنى آخر أن قواعد المدارس الأدبية ، قد جمعها النقاد أو كاتبو تاريخ الأدب من خلال أعمال أدباء كبار أمكنهم أن يختطوا أسلوباً جديداً في أدبهم . . . ومن ثم بات من الضروري أن يجمع الأديب المعاصر بين الإكثار من قراءة النماذج والاطلاع على القواعد التي رتبها علماء النقد . . .

الأمر الرابع هو موضوع جوهري يربط الأديب بأهداف عليا ، وغايات نبيلة . وهذا لن يكون إلاّ إذا كان للأديب منطلق فكري واضح ، أو فلسفة محددة يمكنه أن يلتزم بها . وينهج على منوالها ؛ فليس الأدب مجرد كلمات جميلة . أو عبارات عذبة سلسة ، أو ألفاظ طنانة براقة . أو تراكيب إنشائية تبهر النظر . وتهز السمع . وإنما الأدب الأصيل هو الذي يجمع بين عناصر ثلاثة :

أولها — إثارة العقل وإقناعه .

ثانيها — تحريك الوجدان وإشعاله .

ثالثها — التحريض على فعل شيء ما . وهو أمر يرتبط بسلوك المتلقي .

عندئذ يكون لذلك الأدب قيمة حقيقية ، ذلك الأدب الذي يشبع الروح والعقل ، ويدفع بحركة التغيير إلى الأحسن . ويسمو بالأذواق والأفكار ، ويبذر في النفس بذور القوة والأمل والخير والحب والعدل ، والأديب عندئذ يكون حاملاً لرسالة عظيمة ، ومبشراً بحياة سعيدة حرة تبعث الأفراح والأشواق في قلب الإنسان ، وتساهم في البناء الحضاري الراسخ الذي يستعصى على عوامل الهدم والفناء . . . وهنا يكمن السر في ذلك الخلود الذي حظي به كثير من الكتاب على مر الأجيال والعصور ، وهنا أيضاً يتضح لنا كيف أن التاريخ جر أذيال النسيان على تراث كتاب كثيرين لم تكن مؤلفاتهم تساوي ثمن المداد والأوراق . . وأخيراً يجب أن يسأل كل أديب نفسه :

لماذا يكتب ؟ ؟

ولمن يكتب ؟ ؟

عندئذ تتضح معالم الطريق ، ويمضي ركب الإنسان إلى قمة المجد والخير والشرف والسعادة .

أزمة النّقد الفنّي ..

لا شك أن النقد له دور هام يلعبه في حياتنا الفكرية والفنية، وليس هناك نهضة فنية أو أدبية إلاّ إذا قام النقد بواجبه إزاء تلك النهضة من حيث التقييم والتقويم ، لأن النقد في العادة يحدد المستوى الذي وصلت إليه ، ويشير إلى المسار الصحيح الذي يجب أن تنطلق فيه ، ويكشف عن محاسن تلك النهضة ومساوئها ، ثم أن النقد يمكنه أن يرد الآثار الفنية إلى أصولها ومنابعها ، ويتطرق إلى المؤثرات التي لونت النتاج الفني بألوانها المختلفة ، وكذلك الأجواء النفسية والبيئية التي تداخلت في فكر الفنان وأسلوبه في العمل . . .

النقد إذن هو استخدام المقاييس الصحيحة للحكم على التجارب الفنية شكلاً ومضموناً ، وهو ضرورة تاريخية وفنية ، وتقاعس الحركة النقدية يعني نقصاً خطيراً في حياتنا الفنية . . .

ومما لا شك فيه أن حركة النقد العربي قد أصابها الكثير من القصور والخمول ، بحيث لم تستطع أن تؤدي رسالتها

على الصورة المنشودة ، التي تتواءم وحركة التقدم والبناء والتطور العلمي في أرجاء الوطن العربي الكبير. لقد كان النقد الفني عامة والأدبي خاصة ظاهرة قوية ملفتة للنظر في النصف الأول من هذا القرن ، كانت المحافل الأدبية تفرد له ندواتها ومجالسها ، وكانت الصحف والمجلات تجعل له مكان الصدارة، وكانت المعارك الأدبية تشغل الأذهان بنفس الدرجة التي كانت عليها الصراعات السياسية أو أقل قليلاً ، ولمعت في تلك الحقبة الزمنية أسماء كبيرة عرفها الناس في مشرق العالم العربي ومغربه ، أجل . . . ترددت أسماء طه حسين وخليل مطران وهيكل وشوقي وحافظ والزهاوي والزيات، والمازني والعقاد وشكري والغاياتي والريحاني ، وكانت هناك مدرسة الديوان ومدرسة أبولو ومدرسة الرافعي ، وحملت الصحف في صدر صفحاتها الأولى أبناء تلك المعارك النقدية التي أثرت الفكر والفن إثراء عظيماً . . . وفي رحاب هذه الحركة النقدية القوية تطورت فنون القصة والرواية والمسرحية والشعر والمقالة وألوان التراجم والسير ، والبحوث التاريخية والفلسفية بأنواعها. كما ترجمت آثار الكبار من مفكري الغرب والشرق ، وعُقدت الدراسات المقارنة بين هذا وذاك . . .

وعلى الرغم من أن تلك النهضة النقدية قد شابها الكثير من الصخب والعنف ، وتلونت بالأهواء الشخصية والمواقف الحزبية في بعض الأحيان ، إلاّ أنها في مجموعها كانت خيراً

وبركة على الحياة الفكرية والأدبية ، واستطاعت أن تقوم بواجبها ، وتؤدي رسالتها على نحو من الأنحاء ، فهي في الواقع حركة بناء خصبة جادة ، وقد خلفت لنا تراثاً كبيراً يدعو إلى الاعتزاز والفخر . . .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟ ؟

لقد نمت وتطورت فنوننا وآدابنا ، وأصبح لدينا جيل من كتّاب القصة والرواية والمسرحية والشعر ، وابتدعت ألوان جديدة من هذه الفنون ، وانتشر فن السينما والتليفزيون ، وأصبحت هناك قطاعات عريضة من المجتمع تتذوق تلك الألوان الفنية وتحفل بها ، لكن حركة النقد — للأسف الشديد — قد تخلفت كثيراً بالقياس إلى التطورات الاجتماعية والعلمية والفكرية الهائلة ، وبالقياس أيضاً إلى الجهود العظيمة التي بذلها الرعيل الأول في النصف الأول من هذا القرن خاصة . . .

ترى ما هي الأسباب التي جعلت النقد العربي لا يستطيع القيام بدوره الفعال في أيامنا هذه ؟ ؟

إن أولى العقبات التي تعترض مسيرة النقد ، هي افتقار الناقد إلى ما يستحقه من تقدير مادي وأدبي ، فالناقد اليوم — بالنسبة للأدباء والفنانين — يقف في مؤخرة الموكب ، ولا يكاد يلتفت إليه أحد ، ولا يكافأ على عمله إلاّ بالنذر القليل ، وهذا دون شك أمر مجحف جعل الكثيرين ممن لديهم القدرة

على النقد ، يبحثون لهم عن مصدر رزق آخر ، أو يفتشون عن حياة أخرى تضمن لهم التقدير والاحترام ، حتى وإن كانت هذه الحياة لا تتفق مع ميولهم وتخصصاتهم ، ان عدداً كبيراً من النقاد يتجه إلى عمل صحفي ، او يشارك في إعداد القصص للمسرح والتمثيليات والسينما ، أو يحتمي في ظل وظيفة من الوظائف الروتينية كي تضمن له الحد الأدنى من المعيشة أو المرتب الثابت ، وقلما يدفعه شعوره وعقله فيمسك القلم ، ويسطر بضع صفحات عن النقد . . .

العقبة الثانية – ولعلها أخطر من الأولى – هي أن الكثير من النقد على أيامنا ، قد أغرقته السياسة أو المذهبية المتعصبة في طوفانها الهادر ، فضاعت قيم العدالة والإنصاف والموضوعية وهي روح النقد وسر بقائه ، فتألقت في سماء الفن والفكر أسماء زائفة ، وأحيطت بهالة من التمجيد والتكريم ، ثم هوت برغم كل شيء إلى قاع النسيان والفناء ، وفي الوقت نفسه ، حوربت شخصيات أصيلة جادة ، قدمت العديد من الروائع ، لكنها والحمد لله أمكنها الصمود ، فواصلت العطاء ، ومضت في طريقها غير عابئة بما يصيبها من إجحاف ، أو ينالها من تجريح . . . ولا يستطيع باحث منصف أن ينكر ما أدى إليه وباء التعصب و « الشللية » من دمار وخراب في النهضة الفكرية والفنية المعاصرة .

العقبة الثالثة – هي أن كثيراً مما يسمونه نقداً لا يمت

إلى النقد الصحيح بصلة تذكر ؛ ان عدداً كبيراً من الكتابات النقدية اليوم ، لا يتعمق العمل الفني ، ولا يبحث في جدية عن العلاقات التي تربط ذلك العمل بالواقع المعاصر ، وبشخصية الفنان ، وبالمؤثرات الثقافية والنفسية والبيئية التي عايشها ، إنها مجرد كتابات تعبر عن انطباعات الناقد ومزاجه الشخصي ، دون اعتبار للقواعد والأصول النقدية الموضوعية ، فهي أقرب إلى « التقريظ » منها إلى النقد العلمي . . .

ولهذا دخل النقد في باب ما نسميه « بالدعاية » ، أصبح أشبه بالإعلانات التي ينشرها المنتج السينمائي في الصحف والمجلات وعلى شاشة التليفزيون ، أو كالمساحات الصغيرة التي يحجزها ناشر الكتب في وسائل الإعلام كي يروج لكتبه الجديدة وموضاعاتها ، ويضع إلى جوارها ثمنها الذي تباع به ، حتى وسائل الإعلام لم تعد تتحمس لأن تفسح المجال للكتابات النقدية الجادة ، لأنها تشغل حيزاً يفقدها الكثير من الإعلانات المجزية . . .

وكان لهذا كله صلة وثيقة بإفساد أذواق الجماهير ، فأخذت تقبل على الألوان الفنية الرخيصة ، والهابطة المستوى ، السهلة التناول ، المشحونة بالمشهيات أو المسليات أو المخدرات ، والتي تعمد إلى الإثارة الطائشة ، ومخاطبة الغرائز الدنيا في الإنسان ، وكان لهذا أسوأ الأثر في تشكيل وجدانات الأجيال

الجديدة ، والسير بها في متاهات الفساد والضياع والتمرد، والتباهي بالانفلات من القيم الأصيلة البناءة .

العقبة الرابعة ــ ان الأجهزة الرسمية لا تستطيع تقدير حجم تلك المشكلة الضخمة ، وبالتالي لم تتخذ العدة لتلافي ما في حياتنا النقدية من عجز وقصور ، وكان في إمكان تلك المؤسسات ــ بما أوتيت من إمكانيات ــ أن تتبنى قضية النقد ، وتضع خطة طويلة المدى لمسح شامل في الإنتاج الأدبي والفكري وتوظف النقاد المتفرغين ، للقيام بدورهم في إطار تلك الخطة ، ومن ثم يمكنها أن تبحث عن المواهب الفنية المهدرة ، والطاقات المغمورة ، وعن الطفرات الفنية الممتازة التي لا يكاد يسمع بها إلا قلة من الناس ، ثم تقدم هذه « المجهولات » إلى الناس ، ويسلط عليها الأضواء الكاشفة . . . وتستطيع الجامعات المتخصصة أن تلعب نفس الدور ، فتنتشل النقد من الهوة التي تردى فيها ، وبالتالي تبعث الاتساق والقوة والحيوية في حياتنا الفنية والفكرية ، فتحافظ بذلك على قيم الحق والخير والجمال . . .

وبطبيعة الحال لا يحق لنا في هذه العجالة أن نثني على بعض الجهود الفردية العملاقة ، لنقاد أمناء استطاعوا أن يحملوا المشعل وسط العواصف والأنواء ، في شجاعة لا مثيل لها ، فقدموا بذلك أجل الخدمات وأعظمها لحركة الفكر العربي المعاصر .

قضيّة التّعليم الدّيني

لا يستطيع أحد أن ينكر ما للنهضة العلمية المعاصرة من أثر كبير على سلوك الأفراد والجماعات ، لأن محصلة العملية التعليمية وما يتبعها من تطبيق أو تكنولوجيا ، قد استطاعت أن تغير الكثير من المفاهيم والعلاقات الاجتماعية ، والقيم الأخلاقية ، بل المشاعر الوجدانية هي الأخرى قد تأثرت إلى حد كبير . . .

وعلى الرغم من التطور الكبير الذي قلب المفاهيم التعليمية ومناهجها قلباً هائلاً ، إلاّ أن ذلك التطور لم يستطع أن يترك الأثر المنشود في مجال التعليم الديني ؛ وهو ركن هام في النشاط التربوي والمنهج العلمي بالنسبة لكل مسلم . . . ومن هنا كانت النتائج التي توصلنا إليها من خلال التعليم الديني بالنسبة لأجيالنا نتائج تنبي عن عدم النجاح ، أو بلوغ الهدف المقصود .

ولهذا أصبح من الضروري أن نبحث عن الأسباب الرئيسية لذلك الفشل على الصعيد العربي والإسلامي . . .

أول الأسباب ، هو عدم إلمام واضعي المناهج في بلادنا بحجم المشكلة ، وإعطائها وزنها الصحيح ، فهي لا تعدو في ذهنهم عن كونها قضية عادية ، وحلولها على نفس المستوى ، وما أسهل أن ترسم المناهج بحيث تشتمل على قدر من التراث القديم ، وتقديم بعض النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وعرض لأركان الإسلام الخمسة ، وإعطاء بعض النماذج من الشخصيات الإسلامية الفذة ، وكأن الأمر يقف عند هذا الحد ، مع أن المشكلة أعقد من ذلك بكثير ، وتحتاج لوقفة متأنية إزاء التطورات المتلاحقة ، والمذاهب الفكرية المتنوعة ، التي تحاصر الفكر الإسلامي ، وتحاول تضييق الخناق عليه . . . من هنا نرى أن نوعية المواد الدينية التي تدرس تكاد تجعل من المسلم يلم بشيء من مظاهر الحضارة الإسلامية لا جوهرها ، وتركز على ما يهمه كفرد من شعائر وعبادات . . . وقد كان من الأوفق أن يدرس الدين كنظام اجتماعي متكامل ، وأن يلقى الضوء على نظمه الاقتصادية والدستورية والدولية ، كبناء فكري واحد ، يضم في نسيجه كل نواحي الحياة . . .

إن تحويل الواجبات الإسلامية ، والالتزامات الدينية – كما يقول الدكتور مصطفى كمال وصفي – إلى مجرد أخلاقيات فردية ، هو الذي يضع في أذهان الطلبة ، أن الدين ليس ملزماً من الناحية الاجتماعية والعلائق الاقتصادية والآداب السياسية ، فإذا تعرضت الكتب الدينية للوفاء بالدين مثلاً ،

لم تَعرْض للأدلة التي تنص على أن الوفاء به واجب مقرر ، وعليه التزامات معينة . . . وإذا ما حاولت الدروس الدينية أن تتعرض للحضارة الإسلامية ، فإنها تتناولها من جانبها الظاهري فقط ، بحيث تمجد ما فيها من عدالة وحرية وإخاء ، وغير ذلك من القيم المجردة التي لا يحاول الكتاب أن يتعمقوها ويقننوها ، ويبينوا – بأسلوب العصر – حدودها الدقيقة ، وبنودها الدقيقة ، وتطبيقاتها الاقتصادية والدستورية ، وبذلك تكتسي المعاني الحلوة المجردة بعظم ولحم ودم ؛ وتصبح مجسدة ، فتنطبع هيئاتها في العقول والأرواح والنفوس ، وتتحول إلى كائن حي متحرك ، يشتعل حيوية وعطاء ، ويملأ فكرنا بالاقتناع التام ، ويرسم لنا الطريق واضحاً جلياً ، فلا نتشتت أو نتخبط في متاهات الظنون والأوهام والمصطلحات المجردة ، لأن التجريد يجر إلى بعض التفسيرات المتناقضة ، وإلى التصرف المخل ، والفهم المبتور في كثير من الأحيان . . . إن مسئولية واضعي المناهج مسئولية ضخمة ، وتحتاج بالدرجة الأولى إلى وعي شامل ، وقناعة تامة بأبعاد هذه القضية الشائكة . . .

السبب الثاني هو ذلك التناقض الكبير الذي يجده الطالب عندما يقارن بين ما يتعلمه في المدرسة من أمور الدين ، وبين ما يشاهده في المنزل والشارع والسينما والمسرح والتليفزيون. إن مجتمعاتنا الإسلامية تعاني من انفصال كبير بين الكتاب الديني

وواقع الحياة المعاشة ، وفي كثير من الأحيان تكون الغلبة للواقع المشوه ، ومن يخرج عن ذلك الواقع — برغم خلله — يشعر بالعزلة والغربة ، فإما أن يستسلم لتيار الحياة الصاخب المضلل ، وإما أن يتصادم معه ، ويعاني من معركة قاسية ، غالباً ما تكون ذات نتاج سيىء . . . وهنا لا بد من تكامل حقيقي بين عدد من أجهزة الدولة الرسمية التي تؤثر في سلوك الفرد والجماعة ، اذكر من بينها وزارات التربية والتعليم والشباب والإعلام والشئون الإسلامية والعدل والشئون الاجتماعية والاقتصاد ، والجهات المختصة بالكتاب ونشره والأندية الثقافية أو كما يطلق عليها البعض قصور الثقافة ، لأن توحيد الهدف ، والاتفاق على رسم منهج واحد ، والسير في إطار خطة متكاملة ، سوف يؤدي بالضرورة إلى « أسلمة » البيت والشارع والدواوين ، وإلى « أسلمة » الفن والفكر ومختلف أجهزة الإعلام . . . .

ثم يأتي السبب الثالث وهو التناقض بين علوم الدين وما تحتويه الكتب العلمية الأخرى التي تدرس للطالب في المدرسة ، فهو يقرأ في كتب الدين أموراً تتعلق ببدء الخليقة أو خلق آدم ، ثم يجد في كتب أخرى شيئاً مخالفاً عند اطلاعه على نظرية النشوء والارتقاء « لداروين » ، ونفس الشيء بالنسبة للتناقضات التي يجدها في علم الاجتماع لدوركايم مثلاً ، حينما يفسر الحركة الاجتماعية عبر تصورات ونظريات

تتناقض مع الحقائق الدينية ، وقس على ذلك ما ذكره « ماركس » في مؤلفاته الملحدة ، وفرويد في تحليله النفسي وتفسيره للأحلام ، وما ذكره فلاسفة الشرق والغرب في نظرياتهم التي تتناول علوم التاريخ والبيولوجي والفسيولوجي . وغير ذلك من الأمور التي أصبحت – للأسف الشديد – مقبولةً لدى عدد كبير من مفكرينا وقرائنا ، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة التقصي والبحث ، أو على الأقل إجراء عملية توفيقية تنفي التعارض القائم ، أو الانفصام المسيطر ، لا من خلال الأحكام المسبقة ، أو الخداع الفكري ، ولكن من القاعدة الأساسية التي تفرق بين النظرية والحقيقة العلمية . وما وصل إليه دارون ودوركايم وفرويد وماركس وغيرهم مجرد نظريات ، وليست حقائق علمية بالضرورة ، ومن هنا كان اختلاف تلامذتهم ومن أتى بعدهم من علماء ودارسين أقول اختلافهم مع الأساتذة الكبار فيما توصلوا إليه من أفكار . وبالإضافة إلى ذلك نحن ننفي ما لا يتفق مع حقائق الدين بالضرورة . . .

التعارض إذن قائم بين ما يدرسه الطالب في كتب الدين . وبعض ما يدرسه في كتب العلوم الأخرى ، وهذا سبب قوي لإفساد العملية التربوية في المجال الديني . . .

أما السبب الرابع فهو ينصب على مدرّسي الدين ، إننا

نريد المدرس الداعية ، لأن عدداً كبيراً من مدرسي الدين يعتبرونه مجرد وظيفةٍ وعدد من الحصص ، مقيد بنص معين ووقت معين ، والصلّة الروحية بين المدرس الديني والطالب تكاد تكون مفقودة في إطار الرسميات والشكليات ، ومن ثم تأتي دروس الدين باهتة الشكل ، خافتة الضوء . لا تفتح الطريق أمام العقل للانطلاق والتزود بالجديد ، ولا تشعل الروح بما يدفع فيها الدفء والحيوية والقوة . فضلاً عن أن بعض المدرسين في عالمنا العربي والإسلامي ، ليس لديهم التعمق الكافي ، ولا الفقه الصحيح ، أو الدراية الوافية ، لأداء هذه المهمة الصعبة . وما أعظم الحكمة التي تقول : « فاقد الشيء لا يعطيه » .

هذا التخبط العام في تعليم الدين ، وذلك التناقض الكبير الذي يشوش عقول الكبار والصغار ، ثم سطحية المناهج الدينية ، وانصرافها إلى بعض المظاهر والمعاني التجريدية ، وحصر الدين في دائرة الفرد ، وعزله عن حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، هذه الأمور مجتمعة قد ساهمت في فشل التعليم الديني ، وعدم القدرة على صنع جيل مسلم يتمثل الإسلام فكراً وسلوكاً . . .

ولا يفوتني أن أشير إلى أن المعاهد الدينية المتخصصة وكذلك الكليات الدينية . ما زالت كلها في حاجة ماسة إلى

التطور في أسلوب الدراسة . وتغذية المناهج بالدراسات المقارنة ، لأن الدراسات المقارنة أصبحت ضرورة ملحة . في مواجهة الفلسفات الزاحفة من الشرق والغرب . والّتي تسلحت بأقوى الأسلحة الفكرية وأخطرها . . .

إذا أدركنا هذه الحقائق كلها ، أمكننا أن نضع خطواتنا الأولى في ثقة وإيمان ، على الطريق السوي . . .

والله من وراء القصد . . .

في قصيدته الشهيرة « مع الغرباء » يقول الشاعر الفلسطيني المعروف هارون هاشم رشيد :

أبي قل لي بحق الله هل نأتي إلى يافا ؟
فإن خيالها المحبوب في عينيَّ قد طافا
أندخلها أعزاءً برغم الدهر أشرافا
أأدخل غرفتي قل لي ، أأدخلها بأحلامي ؟
وألقاها وتلقاني ، وتسمع وقع أقدامي ؟
أأدخلها بهذا القلب . . هذا المدنفِ الظامي ؟
أبي لو أن لي كالطير أجنحةً لتحملني
لطرت بلهفة رعناء من شوق إلى وطني
ولكني من الأرض ...تظل الأرض تجذبني
لماذا نحن يا أبتي ... لماذا نحن أغراب ؟

وهكذا نرى عزيزي المستمع أن التعبير الأدبي عن المأساة

في بدايتها كان يجيش بالعواطف المضطرمة ، والآلام العاصفة ، والذكريات الدامعة ، كان حجم الكارثة ، والنتيجة المحزنة ، والمكيدة العالمية الخبيثة ، والعجز المأساوي في تلك الفترة، هذه الأمور كلها قد خلقت جواً من الانفعال الجياش ، فانطلقت حناجر الشعراء ، وأقلام الكتاب - تبكي وتنتحب ، وتذرف بدل الدموع دماً ، لكن الأمر لم يمض على هذا النحو ، فبمرور الزمن ، واتضاح الأبعاد الحقيقية للمؤامرة الواسعة ثم التمزق العربي عقب النكبة ، واضطراب السياسة العربية ، كل هذه الأمور قد خلقت لوناً جديداً من الوعي ، هذا الوعي الإيجابي الذي لا تنقصه العاطفة المشتعلة ، والذي يتدعم أساساً بالواقع المعاش ، وبالمنهج العلمي ، والدراسات الجادة لكل جوانب القضية الفلسطينية ، وما يرتبط بها من ماض وحاضر ومستقبل ، والعلاقات المعقدة التي تحكم السياسة الدولية عامة والعربية خاصة . . . انعكس أثر ذلك على أدب الأدباء شعراً ونثراً ، سواء في الأرض المحتلة حيث القهر الصهيوني ، أو على الأرض العربية التي كانت دائماً تتحفز وتستعد لإعادة الحق إلى نصابه ، ولم تعد القضية الفلسطينية مجرد قضية شعب طرد من أرضه تحت سمع وبصر العالم ، دون اعتبار للشرعية الدولية ، وإنما أصبحت هذه القضية تخص أمة بأسرها ، وأصبح هذا المفهوم الأخير بديهية

تاريخية وسياسية لا تحتاج إلى دليل . وقد أكدت الأيام والمعارك المتتابعة ، صدق هذه البديهية . . .

من هنا أصبح الأدب العربي الحديث الذي يتعرض للقضية يضع في حسبانه هذه المفاهيم كلها ، كما ركز على هموم الإنسان المناضل سواء حمل سلاحاً يواجه العدو ، أو معولاً يضرب به الأرض ، أو قلماً يسطر به قصيدة أو قصة أو لوحة ، وبات جلياً أن التحرير بمعناه الصحيح لن يتحقق إلاّ في ظل القوة الواعية بمعناها الشامل . فكانت حركة اليقظة الكبرى التي برزت إلى الوجود العالمي في صورة المنظمات التي حملت السيف والقلم ، وانطلقت في مختلف أنحاء العالم تعبر عن مأساتها . وتشرح أبعاد قضيتها بمنطق العصر ، وأثبتت وجودها بالكفاح الفعلي ، بصرف النظر عن كمية معطياته المادية والمعنوية . . . .

إن كاتباً كبيراً مثل « غسان كنفاني » استطاع من خلال قصصه أن يجسم المأساة ، ويركز على أبعادها الإنسانية ، كي يجعل منها لا مجرد قضية محلية لقطر من الأقطار ، أو مأساة لأمة من الأمم فحسب ، بل صورها في إطار من العالمية ، بحيث أصبحت أمراً ملزماً لأي إنسان شريف منصف على ظهر الأرض سواء في الشرق أو في الغرب ، وأي قارىء لقصته الشهيرة « رجال تحت الشمس » يخرج بذلك الانطباع ،

إن مأساة الإنسان التائه المعذب الحائر المطارد . يتجلى فيها الظلم الفاحش . حيث تبدو قيم الحضارة الحديثة . وكأنها زيف وكذب ورياء . والقصة مثيرة غاية الإثارة . وتشحن النفوس بالغضب ، وتشعلها بالتمرد والثورة . وتحرض الإنسان — أي إنسان — على فعل شيء ما . حسب طاقاته وقدراته . وتصفع وجه السياسات العالمية المراوغة . وتسقط عن وجهها أقنعة التدليس والعبث والتحيز المخجل ... وكأني بأي قارىء لهذه القصة وغيرها . وكأني به بعد أن يقرأ السطر الأخير . يضعها أمامه . وقد غلى الدم في عروقه ، وتبللت عيناه بالدموع ، ثم يقول في إصرار : « والآن ماذا أفعل ؟ ؟ » ولن تصيبه الحيرة في الوصول إلى الجواب الصحيح في أسرع وقت . وهناك شاعر مثل محمود درويش . الذي شد انتباه كثير من النقاد والمهتمين بالحركة الأدبية . وتخطى شعره الأسوار والأسلاك الشائكة ، وترجم إلى عدد من لغات العالم . وفتحت له أكبر قاعات الشعر في أوربا ، واعتلى منصة قل من اعتلاها من أقرانه المعاصرين . وشاعر آخر مثل سميح القاسم كان له طابعه الخاص ، وسماته المميزة ، وغيرهما من الشعراء الفلسطينيين خاصة والعرب عامة ، هؤلاء جميعاً ، قد خرجوا عن دائرة النواح والعويل والبكاء . وأمكنهم من خلال تصورات فكرية محددة ، ومنهج عملي ملتزم ، أن يخرجوا — كما فعل غسان كنفاني في قصصه — إلى الدائرة العالمية الواسعة .

ونقلوا قضية العصر من التخصيص إلى الشمول ، وازاحوا عن وجهها أصباغ العنصرية والغوغائية والعزلة ، واهتموا بعالم النفس . . . نفس الإنسان المكبل المعذب المهضوم الحق ، فأشعروا كل ذي ضمير في العالم بالإثم ، وبلوروا لديه « عقدة الذنب » من جراء سكوته – أو ممالأته – للصهيونية كحركة غازية متعصبة كاذبة ، تضرب عرض الحائط بكل القيم الإنسانية الشريفة ، تلك التي تحدد إنسانية الإنسان ، وتعطي الحياة صفتها المثالية ، وتنبض بالحق والخير والحب والجمال . .

بذلك استطاع الأدب الفلسطيني أن يواكب معركة التحرير ، ويعايشها في عمق وأصالة ، لم يكن ذيلاً لها ، ولم يلجأ إلى الشعارات الطنانة ، أو الصرخات الجوفاء ، بل غزا العقول والقلوب ، وتغلغل إلى الأعماق ، وفعل فعله في تشكيل النفوس ، وتنسيق الطاقات العاطفية الهائلة ، وأمكنه أن يساهم في بناء الوجدان وتدعيمه ، بل إن هذا الأدب استطاع في مواقف كثيرة أن يكون قائداً ورائداً ، وهناك أيضاً عشرات من الكتاب والشعراء أمكنهم أن يمسكوا بالقلم أو الريشة في يد ، وبالسلاح في اليد الأخرى ، هؤلاء الرجال الشرفاء ، لم يجعلوا من الأدب مجرد « ديكور » للثورة الفلسطينية ، بل غمسوا أقلامهم في دمائهم . وحاربوا بالكلمة والقذيفة ، وجعلوا من حياتهم مداداً ودماءً . وكلاماً وسهاماً . . . ولست في مجال حصر الأسماء والمؤلفات والمواقف الشريفة بالتفصيل ،

وإنما الهدف هو وضع تقييم عام لأثر النضال الفلسطيني في أدبنا العربي الحديث ، ومدى إمكانياته في التوجيه والتأثير . . .

لقد كانت فلسطين دائماً موضوعاً تقليدياً في شعر الشعراء، وكتابة الكتّاب منذ عشرات السنين ، كان كل أديب يرى نفسه ملزماً بأن يساهم بقدر من فنه ، سواء في ذلك كبار الأدباء أو الناشئة ، لكن صدق التعبير ، وحرارة العشق ، واتقاد الشوق ، وعمق الوعي ، وروعة الفداء ، لم تكتمل إلاّ في الأيدي الخشنة التي احترقت بنيران المعاناة ، وجسامة التضحيات ، ومعجزة الإصرار على مواصلة المسيرة الخالدة مهما كان الثمن ، ومهما كانت العقبات ، وبصرف النظر عن أبواق اليأس والخنوع التي تتردد هنا وهناك من آن لآخر ...

ولقد غمرت الأسواق مئات من القصص والروايات والدواوين تعالج موضوع فلسطين ، كان عدد كبير منها يلتحف بأحداث الماضي ، ويجنح إلى تصوير البطولات الساذجة ، والنغمة الخطابية ، والمواقف المكررة والشخصيات المسطحة ، وكان للسينما أيضاً نصيبٌ من هذا الركام ، لكن هل هذه الآثار الأدبية والفنية أمكنها أن تقدم شيئاً ذا جدوى ؟ ؟ لا أعتقد ، لأن السذاجة في تناول هذه القضية الخطيرة ، ثم البساطة في سرد بعض الأحداث لتلك الكارثة المعقدة ، وكذلك دس الشعارات المذهبية ، والتشعبات السياسية ،

والخلافات الإقليمية ، مثل هذه الأمور تشوه وجه الفن الحقيقي . ولا تأتي بالنتيجة المرجوة . . . وهو أمر يؤسف له . .

وهناك نقطة أخيرة يجب أن يدركها أدباؤنا . . . إن العالم لن يقدم لنا حقوقنا المشروعة على طبق من ذهب . . . فعلى كواهلنا وحدها يقع العبء الأكبر إن لم يكن كل العبء ، من هذا المنطلق يجب أن نترسم في خطانا الكفاحية القيم الروحية الخالدة ، ومن واجب حملة الأقلام أن يعوا ذلك جيداً . حتى تظل للمعركة قداستها وحرمتها . . . فهي بالدرجة الأولى جهاد مقدس . . .

وأختتم حديثي بالأبيات الأخيرة من قصيدة هارون هاشم رشيد الشهيرة :

فيصرخ : سوف نرجعه سنرجع ذلك الوطنـــا
فلن نرضى لـــه بدلاً ولن نرضى لـــه ثمنا
لنـــا أمل سيدفعنـــا إذا مـــا لوّح الثـــأر
وصبراً يـــا ابنتي صبراً غـــداة غـــدٍ لنا النصر

الفكرة .. كعنصر أساسي في العمل الأدبي

من الأمور التي لا خلاف عليها أن الكلمة كأداة تعبير تحمل رمزاً أو معنى في أية لغة من لغات العالم ، والجملة أو العبارة التي تنتظم فيها الكلمات . تعطي معنى أوسع أو فكرة مبسطة . فإذا ما كتبنا قصة ، أو ألّفنا مسرحية . تجلت الفكرة واضحة بعناصرها المختلفة . وأبعادها التفصيلية ، وأمكن للقارىء أن يلم بتلك الفكرة . ويتمثلها جيداً من خلال العمل الفني الناجح . وعندئذ يستطيع أن يتخذ منها موقفاً كأن يتقبلها ويقتنع بها . أو يرفضها لأسباب ذاتية أو موضوعية ؛ من هنا كانت الفكرة تحتل مكانة رئيسية في العمل القصصي أياً كان لونه : سواء أكان قصة قصيرة أو رواية أو مسرحية أو قصة سينمائية أو تمثيلية . . .

إن القارىء العادي يتحدث عن إطار القصة ، قاصداً بذلك الأحداث التي يبني عليها العمل القصصي . والأهم من ذلك أن يتساءل لماذا حدث ؟ ؟ وما هي النتيجة ؟ ؟ وربما كانت الأسباب الكامنة وراء الأحداث هي الأمر الأكثر

اهتماماً بالنسبة للقارىء ، ويمكننا أن نبلور ذلك كله في كلمة « معنى » الحدث أو الفكرة المسيطرة ، التي تدور حولها الصراعات والحوار والوصف والسرد والبناء العضوي ككل . .

ومحصلة لذلك يكون قبول القارىء أو رفضه للفكرة وهذا يعتمد على حسن اختيار الكاتب للفكرة ، ومدى قدرته على الإقناع . فإذا كانت الفكرة تتفق مع خبرة القارىء في الحياة ، وتجاربه مع الواقع . أو كان تصويرها يبدو طبيعياً متسقاً مع المنطق، كان ذلك أدعى إلى نجاح الفكرة ، ورضى القارىء عنها .

القصة إذن تريد أن تقدم فكرة . وهو ما يسميه البعض بالمضمون الذي ينسجم مع الإطار الفني أو الشكل الفني . والفكرة قد تعبر عن حقيقة من حقائق الحياة . أو نمطاً من أنماط السلوك الإنساني ، أو ظاهرة من الظواهر النفسية أو الاجتماعية ، أو خللاً معيباً في تركيب الكيان الفردي أو الجماعي . أو تبلور معنى سياسياً . أو علاقة عاطفية . أو قيمة من القيم العليا . في مواجهة قوى الشر والفساد والدمار ، الفكرة إذن هي النواة التي يتراكم حولها الصراع ويحتدم . ويدور ويعلو ويهبط . . .

ولا يمكننا بطبيعة الحال أن نفصل الفكرة عن الشكل الفني المميز للقصة . فهما وحدة عضوية واحدة ، ولولا ذلك

لأمكننا أن نقدم الفكرة في مقالة أو بضع عبارات مجردة دون التزام بالبناء الخاص بالقصة من بداية وعقدة ونهاية ورسم شخصيات وتسلسل الأحداث . ومع ذلك فإننا قد نجد قصة جيدة . رائعة البناء . تشد الانتباه ، وتسيطر على حواس القارىء ، وتنال إعجابه ورضاه . لكننا إذا تعمقنا الأمر ، وتبينّا الفكرة . قد نجدها فكرة تافهة أو ضعيفة . وعلى النقيض من ذلك قد نرى فكرة رائعة قوية في إطار قصصي مهلهل . لا يشبع الوجدان . ولا يستثير المشاعر ، فالقصة الناجحة هي التي تحتفي بالشكل وبالمضمون معاً . . .

يقول الدكتور عز الدين إسماعيل : « حين نبحث عن مصدر إعجابنا بقصة قرأناها . سنجد أن فكرتها كان لها أثر في هذا الإعجاب . ولكن هل نحن نقرأ العمل الفني لفكرته فحسب ؟ ؟ إن القصة صورة للحياة . ونحن نعرف الحياة (في الغالب) معرفة جيدة . وننتظر من القصة دائماً أن تكون صادقة حية مقنعة كالحياة الواقعة ، ولكن القصة تمتاز عن الحياة . بأن لنا صورة فنية خاصة . . . وكما أن هناك أنواعاً من القصة تعنى عناية خاصة بالحادثة أو الشخصية . فهناك القصة التي تهتم اهتماماً أكبر بالفكرة . ويقل الاهتمام فيها بالتشخيص وبالسرد . ومعنى هذا أن الشخصيات تتصرف وفقاً لفكرة الكاتب ، لا لتكوينها الخاص . وبذلك قد تكون تصرفاتها منطقية ، ولكنها برغم ذلك لا تكون مؤثرة . لأنها

فقدت حريتها أمام التوجيه الخاص الذي يوجهها به المؤلف . ففي قصة الفكرة يغلب الجانبُ المنطقي جانبَ الضرورة . ويقل جانب الحرية ، ولا تتساوى أهمية المنطقية والتلقائية . أو لنقل الضرورة والحرية ، إلاّ في نوع خاص من القصة . يسمى « القصة الدرامية » . ففيها تتصرف الشخصيات تصرفات منطقية أو التصرفات الضرورية . ولكنها في الوقت نفسه تصرفات تصدر عن الشخصيات ذاتها . وهي في كامل حريتها ، لا مسيرة كما يريد الكاتب . . .

وفي عصرنا الحديث . حيث تنوعت المدارس الفلسفية . والمذاهب السياسية . والاتجاهات الفنية ، وحيث ارتفعت المستويات الثقافية . وقلت نسبة الأمية ، وأصبح للإذاعة والسينما والتليفزيون والصحف آثارها البعيدة ، في هذا العصر احتدمت الصراعات الفكرية ، فانعكس ذلك كله على الفن . ولجأت المذاهب السياسية خاصة لاستخدام الألوان الفنية خاصة القصة في التبشير بدعواتها أو دعاياتها . فكان أن غلبت الفكرة على ما عداها من عناصر القصة ، وأصبحت تشكل أمراً حيوياً لا محيص عنه . لأن القارىء اليوم لا يبحث عن التسلية وحدها — وخاصة القارىء المثقف ثقافة عالية — وإنما يريد أن يقع على فكرة لها وزنها . يمكنها أن تستثير عقله . وتسلمه إلى حوار ذاتي ، بحثاً عن الحقيقة . . . الحقيقة التي أصبح كل صاحب مذهب يعلن أنه هو الوحيد الذي يمتلكها ، ويمضي

في تركيبها . وكأنه هو الذي وضع يده على السر . وبلغ الصواب المطلق . ولم تعد الأفكار الساذجة بقادرة على إشباع إنسان اليوم . وإقناعه وإرضائه . ومن هنا كان إثقال الفن بالأفكار المقحمة . والدعاوى التعصبية . والقيم العنصرية المريضة . عملاً يسيء إلى الفن والفكر . ويهبط بمستوى الأداء . ويهلهل الشكل الفني . ذلك الشكل الذي لا يمكن بدونه أن نميز بين الألوان الفنية المتفردة . . .

الفكرة إذن هامة . لكنها في يد الفنان المقهور العاجز تضر بالصورة الفنية أبلغ الضرر . فتمجها أذواق الجماهير . وتعزف عنها عزوفاً شديداً . ولهذا السبب سمعنا عن مؤسسات موجهة ساقت الفنانين إلى حظائر السخرة الفنية . وألزمتهم بموضوعات معينة . وأفكار مغرضة . فكانت النتيجة أن بقيت ملايين النسخ من تلك الكتب . ملقاة في مخازنها يعشش فوقها العنكبوت . ويغمرها الغبار . ولم تستطع رغم ألوان الدعاية المختلفة . والتسهيلات الكثيرة ، أن تجد الطريق إلى عقول القراء وقلوبهم . . . وفي مثل تلك الأحوال يلجأ القارىء إلى الآداب الكلاسيكية . ويحاول أن يبحث عن مصادر أخرى يروي بها ظمأه إلى المعرفة والفن . ولا يكترث للمؤلفات أو النشرات الرسمية المغرضة ، التي أهدرت قيم الفكر والفن الصحيحين . . .

وعلى النقيض من ذلك تكون الفكرة في يد الفنان الحر الموهوب نبعاً ثراً للعطاء . وفيضاً عميماً لقيم الخير والحب والجمال . فينتشي بأريجها العطر في مشوار الحياة الطويل الشاق . ومن ثم تسمو بذوقه . وتهذب مشاعره . وتزيد من حصيلته الثقافية والروحية والعملية . . .

لكن كيف يختار الكاتب القصصي الفكرة . وما هي الطريقة التي يحصل بها عليها ؟ ؟

إن ثقافة الكاتب محصلة خبراته الخاصة في الحياة ، وقراءاته المختلفة في شتى فروع المعرفة . ومواقفه المتباينة إزاء الأحداث والناس والقيم والأعراف والتقاليد . والكاتب الموهوب يستطيع أن يمزج ذلك كله . ويستوعبه ويتمثله . ثم يخرج بالجديد الذي تكون لديه قناعة تامة . . . ومن ثم قد تكون الفكرة فكرته . . . وقد تعجبه فكرة اقتنع بها عبر التراث أو التجارب أو الأحداث التي مر بها الآخرون . فيعرضها من جديد بأسلوب حديث متميز ، وقد يكون لتلك الفكرة المستعارة إن صح التعبير . صدى أوسع . وتأثير أكبر . لأنه أوتي الموهبة أو المقدرة على روعة التعبير . وهل ينكر أحد أن التراث الديني والفلسفي والتاريخي في العصور الغابرة والعصور الحديثة أيضاً يعتبر كنزاً فريداً لأفكار لا تعد ولا تحصى ؟ ؟ المهم أن تكون الفكرة متوائمة مع احتياجات

لواقع . ولها دور بناء في دفع عجلة الحياة إلى الأمام . والعمل على إسعاد البشر ، وإثارة وجدانهم وعقولهم كي تسخط أو ترضى ، وتقبل أو ترفض ، وتجعلهم دائماً في شوق إلى اتخاذ موقف ، أو فعل شيء إيجابي . من خلال الأقوال أو الأعمال .

المدائح النبويّة في الشّعر العربي

لقد حفل الشعر العربي منذ القدم بباب المديح . وأتى فيه بأنماط تكاد تكون فريدة في نوعها . بالمقارنة إلى التّراث الشعري العالمي ، ولم تكن المدائح كما قلنا ذات مرة وقفاً على تمجيد الأشخاص . ورفع مكانة الكبار فحسب . بل كانت تغنياً بالمثل العليا . والقيم الرفيعة التّي تنعكس بالخير والمحبة على المجتمع . وإن جعلت صفة من صفات الممدوح . ولقد سجل لنا التاريخ أسماء نخبة من الرجال العظماء اتصفوا بالكرم والشجاعة والأنفة والغيرة . والتزموا بمبادىء رائعة . بقيت حية نابضة طوال القرون المتعاقبة . . .

وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته لم يكن كملك يأمر فيطاع . أو سلطةٍ مرهوبة باطشة . أو لديه الخزائن المكتظة بالذهب والأموال . ولم يكن قائداً مفتوناً بالقوة والحرب والغزو من أجل مجد شخصي . لم يكن صلى الله عليه وسلم كذلك . وإنما كان رسولاً يملك كلمة الحق . وفي يمينه كتاب مقدس وضعت فيه أسس الحياة الكريمة .

والعلاقات السوية ، والمسئولية الكبيرة ، فلم يكن يغدق الذهب ، بل يقدم تصوراً صادقاً لما يجب أن تكون عليه الحياة والناس ، ولديه العلاج الناجع لانحرافات الأفكار وظلم النظم السائدة ، وفساد التقاليد القائمة ، كانت شريعته بناء متكاملاً لحياة متسقة عادلة تحقق السعادة الأصيلة لكل البشر ، دون تفرقة من لون أو وضع اجتماعي ، أو نسب . . .

وصدق شاعرهم حينذاك عندما قال :

نبي يرى ما لا يرون وذكره
أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ويقول آخر :

إن الرسول لسيف يستضاء به
مهنـــد من سيوف الله مسلولُ

وهنا حدث تحول كبير في ماهية المدائح وأسلوبها . لقد التزمت بالدعوة الجديدة ، فأخذت تمجدها في شخصية الرسول ، وتصف المعارك الكبرى التي هزت أركان الشرك . ودمرت معاقل الفساد ، وهدمت أركان التعصب والعنصرية والعنجهية ، والتفاخر بالأنساب والألقاب .

وترددت في القصائد مصطلحات وتعبيرات جديدة

استمدها الشعراء من كتاب الله وأحاديث الرسول . لقد حدث تغير في الأسلوب . والأهم من ذلك تغير في المضامين الشعرية بتأثير القيم والمبادىء الجديدة التي أتى بها الإسلام . . . لقد كانت المدائح النبوية تعبيراً عن حب الرسول ودعوته . . . ولم يكن هناك مانعاً شرعياً من مدح الرسول . لأنه صورة من صور الحب له . وفي حديث ما معناه يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهما » والمدائح النبوية ترجمة لهذا الحب . بالإضافة إلى ما يتبع ذلك الحب من اقتداء بالرسول في أفعاله وأقواله ، وتمسكٍ بتعاليمه وآدابه ، والشعائر التي يأمر بها . . .

واستمرت المدائح النبوية في العصور التالية . بل لعلها كانت أشد عاطفة والتهاباً وعمقاً . وشملت بعض المدائح أهل بيته الكرام . وصحابته الأطهار . وسيرته العطرة التي يفوح أريجها في كل مكان . كما اختلطت المدائح النبوية بما يسمونه شعر الحب الإلهي . والتعبد في محراب العشق الإلهي بالكلمة المنظومة . والعبارات النثرية الشفافة . . . بل إننا حين نتصفح القصص الشعبي كقصص أبي زيد الهلالي والأميرة ذات الهمة وغيرهما . نرى قصائد شعرية متناثرة هنا وهناك . ولا بد أن يكون مطلع القصيدة صلاة على الرسول . وتمجيد لفعاله . وبعد أن ينتهي الشاعر الشعبي أو شاعر الربابة من

عرض موضوعه ، أو شرح القصة التي هو بصددها ، يعود ليختتم قصيدته بالصلاة على الرسول ومدحه . . .

وتطورت المدائح النبوية في مختلف العصور ، واتصفت بعمق الفكرة ، وكثرت أبيات الحكمة فيها ، وتشربت بألوان مختلفة من عناصر الفلسفة الإسلامية . وأصبح عصر الرسول بأمجاده وفتوحاته ، واحة حلوة الظل ، عذبة الماء ، بالنسبة للشعراء الذين أتوا بعد قرون ، وخاصة كلما أدركوا أن الفساد قد عم ، وأن المظالم تأخذ بخناقهم ، فيذكرون الناس بأيام الرسول ، ويدعونهم إلى العودة إلى منهجه العادل . ولا ننسى أن كثيراً من الشعراء – إن لم نقل أغلبهم – قد عاد إلى منهج المديح القديم ، حيث تحولت الخلافة إلى ما يشبه الملك . وانحسر عن المجتمع المد الإسلامي الصحيح بقيمه وأفكاره وعواطفه . وأخذ الشعراء يترنمون بفضائل الحكام والأمراء والقواد والولاة طلباً للعطية ، وطمعاً في الجوائز . . .

وكان شعر الإمام البوصيري – رحمه الله – صورة نابضة بالقوة والعاطفة الجياشة ، فياضاً بالحكمة الصادقة ، والنظرة الثاقبة ، ولقد تعرض في شعره لوصف الرسول ومناقبه ومعجزاته وحياته ، وأضفى عليه صفات العصمة والوفاء والصدق والتفاني في الحق ، ثم انطلق يقول ، وكأنه شعر بأنه لم يوفه حقه بعد :

دع ما ادعته النصارى في نبيهمُ

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

أي أنه يريد أن ينفي عن الرسول صفة الألوهية التي أضفاها اتباع عيسى عليه السلام ، عليه وبعد ذلك. . . بعد أن نتخلص من فطنة الشرك والضلال ومن المساس بقدسية التوحيد، بعد هذا كله ، نستطيع أن نمدح الرسول بما نشاء . . . وتمتلىء قصائد البوصيري بالنصائح والوعظيات التي جرت مجرى الأمثال :

وخالف النفس والشيطان واعصهما

وإن هما محضاك النصح فاتهمِ

والنفس كالطفل إن تهمله شب على

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ

واترك هواها وحاذر أن توليه

إن الهوى ما تولى يُصمِ أو يَصمِ

محضتني النصح لكن لست أسمعه

إن المحب عن العزال في صممِ

ويمضي البوصيري في أشعاره وخاصة البردة والهمزية يحلل نوازع النفس الإنسانية وأهواءها ومزالقها ، ويتعرض

لما يقويها أو يضعفها ، ويرسم صورة شفافة وردية للحياة المثالية التي تقود إلى النعيم الأبدي ، حيث الجنة والخلود ، وحيث السعادة العظمى ، والراحة والمتعة ، ومختلف الآلاء والنعم الأخروية . حيث لا مثيل لها « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

شعر البوصيري ديوان فريد في بابه . تلتقي فيه العاطفة الجياشة — وهي أشد ما تلزم للشعر — والحكمة العميقة ، والإيمان الصادق ، فأصبح شعره أكثر ثراء وعطاءً وقيمة . فإن يهز المشاعر بالدرجة الأولى ، فهو في نفس الوقت يوقظ العقل ، ويحرك الفكر ، ويهز الوجدان .

ثم يأتي العصر الحديث بتياراته الشعرية المتنوعة ، ومدارسه المختلفة ، وفلسفاته المتضاربة ، ولم يستطع ذلك كله أن يطمس معالم المدائح النبوية ، أو يجر عليها ذيل النسيان ، فنرى شعراء كباراً كالبارودي وشوقي وحافظ وعزيز أباظة ومحمود غنيم والجوهري والدواليبي وإقبال وغيرهم ، يفردون حيزاً من دواوينهم للمدائح النبوية ، وهنا يبدو الأمر وقد اتخذ أبعاداً جديدة ، فأصبحت القصيدة في هذا المضمار وعاءً لقضايا العصر ، حيث تشتمل على مشاكل المسلمين في مختلف أنحاء الأرض ، ومعاركهم الطويلة مع أعداء الحرية وأعداء الدين ، وتتضمن هذه الأشعار أيضاً قضايا التحول الاجتماعي .

وتطلعات الجماهير إلى الغد الأفضل . وإلى حياة العدل والسلام والأمن . فلا تكاد تأتي مناسبة من المناسبات الدينية كعيد الهجرة أو المولد النبوي . أو دعوة من الدعوات الإصلاحية . إلاّ وعكس الشعر الذي يقال في مثل تلك المناسبات وغيرها آمال الناس وأحلامهم ، مرتبطة بالقيم الخالدة التي بشر بها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام . ونقرأ في المدائح النبوية الحديثة الكثير عن العدل الاجتماعي وعن الديموقراطية وعن الإخاء والحب . وعن الدستور والحرية . وعن الاستعمار وفلسطين والجزائر . وعن مجد الآباء والأجداد الذين رفعوا لواء الإسلام . . . لواء العدل والحرية والإخاء .

يقول الشاعر علي الجارم رحمه الله في قصيدة له عن فلسطين :

عشنا أعزاء ملء الأرض ما لمست
جباهنا تربهـا إلاّ مصلينـــا

لا ينزل النصر إلاّ فوق رايتنا
ولا تمس الظبا إلاّ نواصينـــا

فقبلوا ترب حطـين فـإن به
دم البطولة من أيام حطينـــا

وإذا كانت بعض المدائح النبوية تجنح للشطط ، أو تضفي على الرسول صفات هو منها براء ، فإن الغالبية العظمى من شعرائنا ، وشعرائنا الكبار بالذات ، أمكنهم أن يخلقوا لوناً جديداً من تلك المدائح ، حفل بالكثير من المعاني والقيم الرفيعة ، وحاول أن يستنهض العزائم ، وينفخ في بوق البعث والتحرر من الضعف والهوان والمذلة ، تمثلاً لتلك الحقبة الزاهرة من تاريخنا المجيد . . .

* * *

والواقع أن المدائح النبوية في حاجة لأن يفرد لها مجلد ضخم بل مجلدات . . . وسوف نرى من خلالها لوناً فريداً من التاريخ . . . تاريخ الحب والفكر والمبادىء والرابطة المقدسة التي تضم إلى صدرها الحنون مئات الأجيال ، وعشرات الشعوب ، وآلاف الملايين من البشر . . . ويا له من حب كبير . . . ! !



